

الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة وإخوانهم .
وفي قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملكم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعل من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بالكتب السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزيور، وهذه خاصة المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية^(٤)، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، و «الآخرة»: اسم لما يكون بعد الموت، وخصه [بالذكر] بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل، و «اليقين»: هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿على هدى من ربهم﴾ أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأتى هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهداية [الحقيقية] إلا هدايتهم، وما سواها [بما خالفها]، فهو^(٥) ضلالة.

وأتى بـ «على» في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ «في» كما في قوله: ﴿وَأَنَا أَوْ إِلَيْكُمْ لَعَلِّي هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ﴾ لأن صاحب الهدى مستعمل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه مختقر.

ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰلِحُونَ﴾ والفلاح [هو] الفوز بالمطلوب والنجاة من المهروب، حصّر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك، فلهذا لما ذكر صفات المؤمنين حقاً، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم، المعاندين للرسول، فقال:

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾، يخبر تعالى أن الذين كفروا، أي: اتصفوا بالكفر، وانصيفوا به، وصار وصفاً لهم لازماً لا يرد عنهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم وعظ، إنهم مستمرون على كفرهم، فسواء عليهم أأنذرتهم، أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وحقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه، فهؤلاء الكفار لا تفيدهم

(٥) في ب: فهي ضلالة.

(٣) في ب: بجميع الكتب.

(٤) في ب: بالكتب السماوية كلها.



ذلك [فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتقونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿وَيُقيمُونَ الصلاة﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنياً^(١) بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصلاة تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان^(٢) من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُتَفَقُونَ﴾، يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأتى بـ «من» الدالة على التبعية، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مُثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به

(١) كذا في ب، وفي أ: وباطنها.

(٢) في ب: للعبد.

يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه المفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحمافتهم لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿في قلوبهم مرض﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن القلب يعرض له مرضان يُخرجه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المرذبة، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ وهي شهوة الزنا، والمعاني من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فُرِّقَ في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

خاصم فجر».

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة «بدر»^(١) وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذلّ^(٢) من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفاً ومخادعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلمت أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلاً أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميرون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، وليتقنموا أيضاً عن كثير من فجورهم [قال تعالى]: ﴿يخدر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ فوصفهم الله بأصل النفاق، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ فإنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

الدعوة إلا إقامة الحججة عليهم، وكان في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنتك لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يؤمن ما يتفهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي: غشاء وغطاء وأكئة تمنعها عن النظر الذي يتفهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطعم فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل، فقال: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهروهم الإسلام وباطنهم الكفر، فقال:

﴿٨-١٠﴾ ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون* في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية: «وإذا

(١) في ب: وذلك أن.

(٤) في ب: ويحصل له مقصوده.

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت وقعة بدر.

(٥) في ب: عاد خداعهم على أنفسهم

(٢) في ب: فذل.

فكانهم.

(٣) في ب: وهذا.

مستهزؤون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزأه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يُسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزأه بهم يوم القيامة فإنه يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً، المنافقين، وتبؤوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، ﴿ينادونهم ألم نكن معكم، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم﴾ الآية.

قوله: ﴿ويمدهم﴾ أي: يزيدهم ﴿في طغيانهم﴾ أي: فجورهم وكفرهم، ﴿يعمهون﴾ أي: حاثرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم:

﴿١٦﴾ ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ أولئك، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان^(٩) النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبدلوا الهدى رغبةً عنه بالضلالة، رغبةً فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم^(١٠).

(٩) كذا في ب، وفي أ: الفسقة.

(١٠) في ب: الأموال.

(١١) في ب: وهذه صفقتهم فبئس

الصفقة.

وإخراياً لها عما خلقت له.

﴿١٣﴾ ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، بزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوه إلى السفه؛ وفي ضمنه^(٨) أنهم هم العقلاء أرباب الحجب والنهي.

فردَّ الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه^(٩): جهل الإنسان بمصالح نفسه، ومُسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجج، مُعرِّفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه [وفي] دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على [الصحابة] والمؤمنين وصادقة عليهم، فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة والأقوال الفارغة.

ثم قال تعالى: ﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾ * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴿هذا من قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، [وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن

﴿١١ - ١٢﴾ ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ أي: إذا نبئ هؤلاء المنافقون عن الإنساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإنساد بل هو إصلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية^(١١)، فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ حصر للإصلاح في جانبهم. وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ فإنه لا أعظم فساداً^(١٢) ممن كفر بآيات الله، وصدَّ عن سبيل الله، وخمداد الله وأوليائه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساداً؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إنساداً، لأنه يتضمن فساداً^(١٣) ما على وجه الأرض من الحبوب والشمار والأشجار والنبات، بما^(١٤) يحصل فيها من الآفات بسبب^(١٥) المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمَّر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدرَّ لهم^(١٦) الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيًا بالفساد فيها،

(١) ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد

تحريمها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فساداً.

(٣) في ب: لأنه سبب فساد.

(٤) في ب: لما.

(٥) في ب: التي سبها.

(٦) في ب: عليهم.

(٧) في ب: لزعمهم.

(٨) في ب: وفي ضمن ذلك.

وإذا كان من بذل^(١) ديناراً في مقابلة درهم خاسراً، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهماً؟! فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور عن أعاليها^(٢)؟! فما ربحت تجارتها، بل خسر فيها أعظم خسارة. ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المين﴾.

وقوله: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ تحقيق لضلالهم، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة. ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال:

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيء قدير﴾ أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد ناراً، أي: كان في ظلمة عظيمة وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك إذ ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من

الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها^(٣)، وحقت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم على ذلك^(٤) إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر وظلمة الكفر وظلمة النفاق، وظلم^(٥) المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار [وبس

القرار] فلهذا قال تعالى [عنهم]: ﴿صم﴾ أي: عن سماع الخير، ﴿بكم﴾ [أي]: عن النطق به، ﴿عمي﴾ عن رؤية الحق، ﴿فهم لا يرجعون﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعاً منهم.

ثم قال تعالى: ﴿أو كصيب من السماء﴾ يعني: أو مثلهم كصيب، أي: كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي يصب، أي: ينزل بكثرة، ﴿فيه ظلمات﴾: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، ﴿ورعد﴾: وهو الصوت الذي يسمع من السحاب، ﴿وبرق﴾: وهو الضوء [اللامع] المشاهد مع^(٦) السحاب، ﴿كلما أضاء لهم﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي: وقفوا.

فهكذا حال^(٧) المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده، جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعيده، فبرعهم وعيده وترعجهم

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءَ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ أَتَى اللَّهَ عِلِّيُّنَ وَقُلُوبُهُمْ وَكَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ وَأُخْرَىٰ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِيهِ صِدْقًا مِنْ رَبِّهِ وَأُخْرَىٰ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل^(٨) أصابعه في أذنيه^(٩) خشية الموت، فهذا تمكن له^(١٠) السلامة. وأما المنافقون فأنى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم، قدرة وعلماً، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويمجزهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم والبكم والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي: الحسيَّة، ففيه تحذير لهم وتحذير بالعقوبة الدنيوية ليحذروا، فیرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارض.

وفي هذه الآية وما أشبهها رد على القدرة القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿يا أيها الناس اعبدوا

(٨) في ب: فيجعل.

(٩) كذا في ب، وفي أ: أذنه.

(١٠) في ب: ربما حصلت له.

(٤) في ب: هم كذلك.

(٥) في ب: وظلمة.

(٦) في ب: من.

(٧) في ب: حالة.

(١) في ب: يذل.

(٢) في ب: وترك عاليها.

(٣) في ب: ما استضاءوا بها مؤقتاً

وانتفعوا فحقت.

صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه ثم قال تعالى:

﴿٢٣- ٢٤﴾ **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿ وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، فقال:

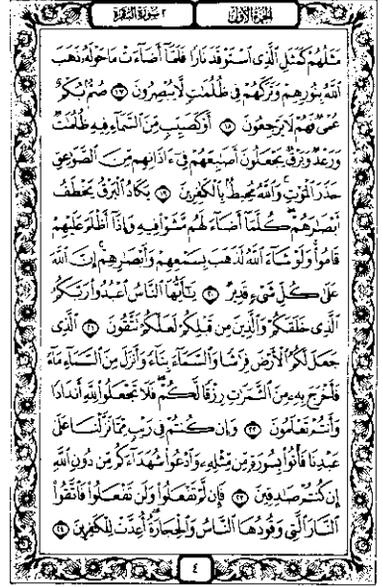
﴿وإن كنتم﴾ معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهاهنا أمر تصف، فيه الفيصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم^(٤)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فاتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله، وقلتم أنتم أنه تقوُّله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون، فاتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرتون عليه من أعوانكم وشهدائكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والحطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم^(٥) على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كمنار الدنيا التي إنما تتقد

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ والسماء: [هو] كل ما علا فوقك فهو سما، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿فأخرج به من الشمرات﴾ كالخجوب والشمار من نخيل وفواكه [وزروع] وغيرها، ﴿ورزقاً لكم﴾ به ترتزقون وتقوتون، وتعيشون وتفكحون.

﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وأشباهاً من المخلوقين، فتعبدهم كما تعبدون الله، وتحبسونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، ﴿وأنتم تعلمون﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في العبادة^(٦)، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية المتضمن لانفراد بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقراً بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.

وقوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين



ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الشمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴿ هذا أمر عام لكل^(١) الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خيره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

ثم استدلل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتنتفعون بالأنبية والزراعة والحرائة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع^(٢) الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لساكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

(١) في ب: لجميع.

(٢) في ب: وجوه.

(٣) في ب: ولا في الألوهية والكمال.

(٤) هكذا في أ، وفي ب: شطب قوله [بأفصحكم ولا بأعلمكم] وفي هامش النسخة بخط المؤلف جملة أخرى هي (من جنس آخر) فتكون

الجملة هكذا (ليس من جنس آخر).

(٥) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد وهذا العرض.

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبه وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق^(١) التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق؛ وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوا ما ونبذوا وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق والقطيعة، والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض.

﴿أولئك﴾ أي: من هذه صفته هم الخاسرون في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفریطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي [كان] العبد بصدده تحصيله وهو تحت إمكانه.

﴿٢٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال أجالكم، ويجازيكم في القبر، ثم يحييكم بعد البعث والشنور، ثم إليه ترجعون،

فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه وتدبيره وبزه، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيليق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحمافة؟^(٢) بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه، وتحافوا عذابه وترجوا ثوابه.

﴿٢٩﴾ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ أي: خلق لكم برأبكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة^(٣) دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الجباث، فإن [تحريمها أيضاً] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الجباث تنزيهاً لنا.

وقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾

﴿استوى﴾: ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» و«ارتفع»، وذلك إذا عدت بـ «على» كما في قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾^(٤)، «لنستوى على ظهوره» وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عدت بـ «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات ﴿فسواهن سبع سماوات﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها، ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ فـ ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾، وـ ﴿يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ يعلم السر

وأخفى. وكثيراً ما يقرب بين خلقه للخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير﴾ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿٣٠-٣٤﴾ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتعمل فيها من يفسد فيها وسفك الدماء ونحن ننبسح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم ما لا تعلمون * وأعلم ما تبون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر^(٥)، أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿اتعمل فيها من يفسد فيها﴾ بالمعاصي ﴿وسفك الدماء﴾ [و] هذا تخصيص بعد تعميم، لبيان [شدة] مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجمعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ﴿ونقدس لك﴾ يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي:

(٤) في ب: أورد آية أخرى هي: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

(٥) في ب: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله.

(١) في ب: بحقوقهم.

(٢) في ب: وسفه كبير، بل.

(٣) في ب: الكريمة.

نظرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونظرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إني أعلم من هذا الخليفة﴾ ما لا تعلمون؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته لخلقه، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم^(١) من الخير والشر بالامتحان، ولتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه، ف﴿علم آدم الأسماء كلها﴾ أي: أسماء الأشياء، ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصة، والمصغر كالقصة.

﴿ثم عرضهم﴾ أي: عرض السميات ﴿على الملائكة﴾ امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟

﴿فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ في قولكم ووطنكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿قالوا سبحانك﴾ أي: نزهك عن الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك، ﴿لا علم لنا﴾ بوجه من الوجوه، ﴿إلا ما علمتنا﴾ إياه، فضلاً منك وجوداً،

﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترافهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فحينئذ قال الله: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي: أسماء السميات التي عرضها الله على الملائكة فمعجزوا عنها. ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة، ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى، ﴿وأعلم ما تبصرون﴾ أي: تظهرون ﴿وما كنتم تكتمون﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً، وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إلا إبليس أبى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿أسجد لمن خلقت طيناً﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه، فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلماً يقول ما شاء ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه التسليم، وإتباع عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما

جهلوا، وتبيهم على ما لم يعلموه.

وفيه فضيلة العلم من وجوه: منها: أن الله تعرف للملائكة بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداءً، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وإفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿٣٥ - ٣٦﴾ ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة والأكل منها ﴿رغداً﴾ أي: واسعاً هنيئاً، ﴿حيث شئتما﴾ أي: من أي أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾ وأنك لا تظما فيها ولا تضجى﴾.

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاء [أو لحكمة غير معلومة لنا]^(٢)، ﴿فتكونا من الظالمين﴾ دل على أن النهي للتحريم، لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما، ويزين لهما تناول ما نيبا عنه، حتى أزلهما، أي: حملهما على الزلل بتزيينه، ﴿وقاسمهما﴾ بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ فاغترأ به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعبد والنصب والمجاهدة.

أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناء، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه.

﴿وأوفوا بعهدي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسوله وإقامة شرعه، ﴿أوف بعهدكم﴾ وهو المجازاة على ذلك.

والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة [وآتيتم الزكاة وأمنتم برسلي]﴾ إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشية أوجبت له خشيته امتثال أمره واجتتاب نهي.

ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أول من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب

والاجتتاب للنهي، ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

فرتب على اتباع هذه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف، فنفاهما عن اتباع هذه، وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عن اتباع هذه وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هذه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هذه فكفر به وكذب بآياته.

ف ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي: الملازمون لها ملازمة صاحبها، والغريم لغريمه، ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمة عليهم وإحسانه، فقال:

﴿٤٠ - ٤٣﴾ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ * وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرينه ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكنموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ * ﴿يا بني إسرائيل﴾ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من

﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يجذ ويجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ * ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾.

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض، فقال: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: مسكن وقرار، ﴿ومتاع إلى حين﴾ انقضاء آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتكم لها، وخلقتم لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكناً حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

﴿٣٧﴾ ﴿فتلقى آدم﴾ أي: تلقف وتلقن، وألهمه الله ﴿من ربه كلمات﴾ وهي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فتاب﴾ الله ﴿عليه﴾ ورحمه ﴿إنه هو التواب﴾ لمن تاب إليه وأتاب.

وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرحيم﴾ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ كرر الإهباط ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدينكم من رضائي، ﴿فمن تبع هداي﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامثال للأمر

أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعلة، فاقترادهم بالأفعال أبلغ من اقتنائهم بالأقوال المجردة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون * يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون * أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وإنها﴾ أي: الصلاة ﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الخاشعين﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشراح صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه.

من دعا جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

ثم قال: ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿وآتوا الزكاة﴾ مستحقيها، ﴿واركعوا مع الرাকعين﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

﴿٤٤﴾ ﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وتنسون أنفسكم﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وأنتم تلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وأسمى العقل^(١) عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، ويعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيتها، فترك

بعض ما أنزل إليه فقد كذب بجميعة، كما أن من كفر برسول، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله: ﴿أول كافر به﴾ أبلغ من قوله: ﴿ولا تكفروا به﴾ لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿ولا تشتروا آياتي ثمناً قليلاً﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحوها وآثروها.

﴿وإيساي﴾ أي: لا غييري ﴿فانقون﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده، أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

ثم قال: ﴿ولا تلبسوا﴾ أي: تخلطوا ﴿الحق بالباطل وتكتموا الحق﴾ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وكتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتّم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو

(١) في ب: وسمي.

لنا مما تنبت الأرض من يقلها ﴿أي﴾: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه، ﴿وقشائها﴾ وهو الخيار ﴿وفومها﴾ معروف، قال لهم موسى ﴿أنستبدلون الذي هو أدنى﴾ وهو الأطمعة المذكورة، ﴿بالذي هو خير﴾ وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم، فإن هذه الأطمعة التي طلبتم، أي مصر هبطتموه وجدقوها، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم، فهو خير الأطمعة وأشرفها، فكيف تطلبون به بدلاً؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم من جنس عملهم، فقال: ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿والمسكنة﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم هم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهمهم أردأ الهمم، ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبنست الغنيمة غنيمتهم، وبنست الحالة حالتهم.

﴿ذلك﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ الدالات على الحق الموضحة لهم، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم، وبما كانوا ﴿يقتلون النبيين بغير الحق﴾

وقوله: ﴿بغير الحق﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم.

﴿ذلك بما عصوا﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وكانوا يعتدون﴾ على عباد الله، فإن المعاصي يجز بعضها بعضاً، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال

فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فقالوا بدل حطة: حبة في حنطة، استهانة بأمر الله واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أديبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ منهم ﴿رجزاً﴾ أي: عذاباً ﴿من السماء﴾ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿٦٠﴾ ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ استسقى أي: طلب لهم ماء يشربون منه، ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس، ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة، ﴿قد علم كل أناس﴾ منهم ﴿مشربهم﴾ أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضاً، بل يشربونه متهئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب، ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ أي: تخربوا على وجه الإفساد.

﴿٦١﴾ ﴿وإذ قلت يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من يقلها وقشائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي: واذكروا، إذ قلت لموسى على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها: ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ أي: جنس من الطعام، وإن كان كما تقدم أنواعاً، لكنها لا تتغير، ﴿فادع لنا ربك يخرج



وفقيتهم ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين، فلم يشكروا هذه النعم، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب.

﴿وما ظلمونا﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الظالمين، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فيعود ضرره عليهم.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾، وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً ووطناً وسكناً، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل، وهو دخول الباب ﴿سجداً﴾ أي: خاضعين ذليلين، وبالقول وهو أن يقولوا: ﴿حطة﴾ أي: أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته.

﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ بسؤالكم المغفرة، ﴿وسنزيد المحسنين﴾ بأعمالهم، أي: جزاء عاجلاً وأجلاً، ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ منهم، ولم يقل



المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت إليهم لفوائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبيّن الله من أحوال سلفهم التي قد تفررت عندهم، ما يبيّن به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين!!؟

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحتها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثاً من الجميع؛ لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

ثم قال تعالى حاكماً بين الفرق الكتابية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين، الصحيح أنهم من جملة فرق النصاري، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وصدّقوا رسلهم، فإن لهم

المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت إليهم لفوائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبيّن الله من أحوال سلفهم التي قد تفررت عندهم، ما يبيّن به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين!!؟

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحتها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثاً من الجميع؛ لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

ثم قال تعالى حاكماً بين الفرق الكتابية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين، الصحيح أنهم من جملة فرق النصاري، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وصدّقوا رسلهم، فإن لهم

(١) كذا في ب، وفي أ: برفع الطور

أهل التقوى.

فبعد هذا التأكيد البليغ ﴿توليتكم﴾ وأعرضتم، وكان ذلك موجياً لأن مجل بكم أعظم العقوبات، ولكن ﴿لولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ أي: ولقد تقرر عندهم حالة ﴿الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت﴾ الآيات.

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم، أن غضب الله عليهم وجعلهم ﴿قردة خاسئين﴾ حقيرين ذليلين.

وجعل الله هذه العقوبة ﴿نكالاً لما بين يديها﴾ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها ممن هو في وقتهم، ﴿وما خلفها﴾ أي: من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا يتفنون بالآيات.

وذلك والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقياساتهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصف. ولما كان أيضاً ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم. ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها، ليوضح الحق، ويزول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهر عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى يُوبّخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ أي: واذكروا ﴿إذ أخذنا ميثاقكم وهو العهد الثقيل المؤكد بالتحريف لهم، برفع الطور فوقهم﴾^(١) وقيل لهم: ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ من التوراة ﴿بقوة﴾ أي: بجهد واجتهاد، وصبر على أوامر الله، ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي: ما في كتابكم بأن تتلوه وتتعلموه، ﴿لعلكم تتقون﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من

القتيل ببعضها، أي: بعضو منها، إما معين أو أي: عضو منها، فليس في تعيينه فائدة، فضرهه ببعضها فأحياء الله، وأخرج ما كانوا يكتنون، فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه وهم يشاهدون ما يدل على إحياء الله الموتى، ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتتزوجون عن ما يضركم.

﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة، ﴿ومن بعد ذلك﴾ أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعمة العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كالخجارة﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أو أشد قسوة﴾ أي: إنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل». ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ فهذه الأمور فضلت قلوبكم، ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها، وكبيرها، وسبجائكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب

وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿أنتخذنا هزواً﴾ فقال نبي الله: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزائه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا: ﴿ادع لنا ربك بين لنا ما هي﴾ أي: ما سنها؟ قال إنه يقول: إنها بقرة لا فارض﴾ أي: كبيرة ﴿ولا بكر﴾ أي: صغيرة ﴿عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ واتركوا التشديد والتعنت.

﴿قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما لونها، قال إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ أي: شديد التسر الناظرين من حسنها.

﴿قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾ فلم تهتد إلى ما تريد ﴿وإننا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول: إنها بقرة لا ذلول﴾ أي: مذلة بالعمل، ﴿تسقي الأرض﴾ بالحراثة، ﴿ولا تسقي الحرت﴾ أي: ليست بساقية، ﴿مسلمة﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لاشية فيها﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي: بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يستدوا أيضاً إليها، ﴿فذبوها﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات، ﴿وما كادوا يفعلون﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا



﴿٦٧ - ٧٤﴾ ﴿وإذ قال موسى

لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أنتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإننا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرت مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبوها وما كادوا يفعلون * وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون * ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون * أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلاً وادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلقتم في قاتله، حتى تفانم الأمر بينكم وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة،

كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم، وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولشكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات وأشنع الفيحاحات.

ثم ذكر تعالى حكماً عاماً لكل أحد، يدخل به بنو إسرائيل وغيرهم، وهو الحكم الذي لا حكم غيره، لا أمانتهم ودعائهم بصفة الهالكين والناجين، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن ﴿من كسب سيئة﴾ وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه، والمراد به هنا الشرك، بدليل قوله: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي: أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته.

﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بأية أو حديث صحيح على قوله الباطل، فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

﴿والذين آمنوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، ﴿وعملوا الصالحات﴾ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله.

فحاصل هاتين الآيتين أن أهل النجاة والفوز أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله، الكافرون به.

﴿٨٣﴾ ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين

وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة

وأتوا الزكاة ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ وهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ إلى آخر الآية.

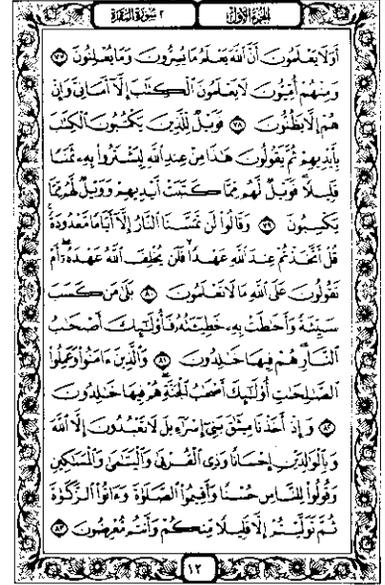
فقوله: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به، استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة والعهود الموثقة ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده.

وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرماً، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالاول، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين، وتفصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد، كما تقدم.

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾.

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به



وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأهواء جملة الكارفة، وتفصيلاً مثل كثير من المتسبين إلى الفقهاء.

﴿٨٠ - ٨٢﴾ ﴿وقالوا لن نمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر مع هذا أنهم يركون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، أي: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن.

ولما كان هذا مجرد دعوى، رد الله تعالى عليهم، فقال: ﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول ﴿اتخذتم عند الله عهداً﴾ أي: بالإيمان به وبرسوله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل، ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً، فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه فتكون

عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله ورجاء لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثم﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله إلى عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ الموائيق عليكم **﴿توليتهم﴾** على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فتعوذ بالله من الخذلان.

وقوله: **﴿إلا قليلاً منكم﴾** هذا استثناء لثلاث يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وبيتهم.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾** ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى فتادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون * وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا

يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة.

فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم^(١) الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، وفرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾** وهو فداء الأسير، **﴿وتكفرون ببعض﴾** وهو القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى: **﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾** وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسب من سب منهم، وأجل من أجل.

﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ أي: أعظمه **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾**

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال: **﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾** توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختراروا النار على العار، فلماذا قال: **﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾** بل هو بقاء على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات، **﴿ولا هم ينصرون﴾** أي:

يدفع عنهم مكروه.

﴿٨٧﴾ **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقيناً من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾** يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسول الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، **﴿وأيدناه بروح القدس﴾** أي:

قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم **﴿بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾** عن الإيمان بهم، **﴿فريقاً﴾** منهم **﴿كذبتم وفريقاً تقتلون﴾** فقدمتم الهوى على الهدى، وأثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿٨٨﴾ **﴿وقالوا قلوبنا غلّف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾** أي: اعتدروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غلّف، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلماذا قال تعالى: **﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾** أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم، فقليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ **﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾** بتسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فيأثروا

(١) كذا في ب، وفي أ: يعينونهم.

واستجابة، ﴿قالوا: سمعنا وعصينا﴾ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي: صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشربها^(٢) بسبب كفرهم.

﴿قل بشما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: أنتم تدعون الإيمان وتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله لما غاب عنكم موسى، نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيته إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمت بالقول ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتهم، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسول الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ يعني الجنة ﴿خالصة من دون الناس﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فتمنوا الموت﴾ وهذا نوع مبالغة بينهم وبين رسول الله ﷺ وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير

وزعم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقا﴾.

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا رداً شافياً، وألزمهم الزاماً لا محيد لهم عنه، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وهو الحق﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مصدقاً لما معهم﴾ أي: موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيماً عليه.

فلم تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا تعصب واتباع للهوى لا للهدى؟

وأيضاً فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم، يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وحجده، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينة ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيته، ثم يأتي هو لبنته وحجته فيقده فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن كفراً بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي: بالادلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ أي: بعد مجيئه ﴿وأنتم ظالمون﴾ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ أي: سماع قبول وطاعة

بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به وتيقنوه، حتى إنهم كانوا إذا وقع^(١) بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا كفروا به، بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضباً بعد غضب، لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم.

ولهم في الآخرة عذاب مهين، أي: مؤلم موجه، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به ويكتبه وبرسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم.

﴿٩١ - ٩٣﴾ ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بشما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن، استكبروا وعتوا، و﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه﴾ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقاً، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله.

وأما التفريق بين الرسل والكتب،

(١) في ب: على أنهم إذا كان وقع.

(٢) في ب: وشربها.



حجة .

استحووا الحياة الدنيا على الآخرة .

﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علماً يثمر العمل ما فعلوه .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين

آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرننا

واسمعوا وللكافرين عذاب أليم * ما

يود الذين كفروا من أهل الكتاب

ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير

من ربكم والله يختص برحمته من يشاء

والله ذو الفضل العظيم﴾ كان المسلمون

يقولون حين خطابهم للرسول عند

تعليمهم أمر الدين: ﴿راعنا﴾ أي: راع

أحوالنا، فيصدقون بها معنى صحيحاً،

وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً،

فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون

الرسول بذلك، ويقصدون المعنى

الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه

الكلمة سداً لهذا الباب، فقيه النهي عن

الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه

الأدب واستعمال الألفاظ، التي

لا تحتل إلا الحسن، وعدم الفحش،

وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها

نوع تشويش أو احتمال لأمر غير

لائق، فأمرهم بلطفة لا تحتل إلا

الحسن، فقال: ﴿وقولوا انظرننا﴾ فإنها

كافية يحصل بها المقصود من غير

محدور، ﴿واسمعوا﴾ لم يذكر المسموع

ليعم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه

سماع القرآن، وسماع السنة التي هي

الحكمة لفظاً ومعنى واستجابة، ففيه

الأدب والطاعة .

ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم

الموجع، وأخبر عن عداوة اليهود

والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون

﴿أن ينزل عليكم من خير﴾ أي:

لا قليلاً ولا كثيراً ﴿من ربكم﴾ حسداً

منهم، وبغضاً لكم أن يحتصمكم

بفضله، فإنه ﴿ذو الفضل العظيم﴾ .

ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على

رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب

والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا

تعلمون، فله الحمد والمنة .

﴿١٠٦ - ١٠٧﴾ ﴿ما ننسخ من آية

أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفسد السحر، فقال:

﴿فيتعلمون منها ما يفرقون به بين

المرء وزوجه﴾ ومع أن محبة الزوجين

لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال

في حقهما: ﴿وجعل بينكم مودة

ورحمة﴾ وفي هذا دليل على أن السحر

له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي:

بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن

قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما

في هذه الآية، وإذن شرعي كما في

قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فإنه نزله

على قلبك بإذن الله﴾ وفي هذه الآية

وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في

قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر

ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف

في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير

القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها

مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها

عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله

وسنة رسوله وإجماع الصحابة

والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضره

محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا

دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية

في بعض المعاصي، كما قال تعالى في

الخمر والميسر: ﴿قل فيهما إثم كبير

ومنافع للناس وإثمهما أكبر من

نفعهما﴾ فهذا السحر مضره محضة،

فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما

مضرة محضة، أو شرها أكبر من

خيرها .

كما أن الأمور إما مصلحة

محضة، أو خيرها أكثر من شرها .

﴿ولقد علموا﴾ أي: اليهود ﴿لمن

اشتراه﴾ أي: رغب في السحر رغبة

المشتري في السلعة .

﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾ أي:

نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم

يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم

بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا

كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين

وتختلق من السحر على ملك سليمان

حيث أخرجت الشياطين للناس

السحر، وزعموا أن سليمان عليه

السلام كان يستعمله، وبه حصل له

الملك العظيم .

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله

سليمان، بل نزهه الصادق في قوله:

﴿وما كفر سليمان﴾ أي: بتعلم

السحر، فلم يتعلمه، ﴿ولكن

الشياطين كفروا﴾ بذلك .

﴿يعلمون الناس السحر﴾ من

إضلالهم وحرصهم على إغواء بني

آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي

أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل

من أرض العراق، أنزل عليهما السحر

امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم

السحر .

﴿وما يعلمان من أحد حتى﴾

ينصحاه، ر ﴿يقولوا إنما نحن فتنه فلا

تكفرو﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه

كفر، فينبهانه عن السحر، ويخبرانه عن

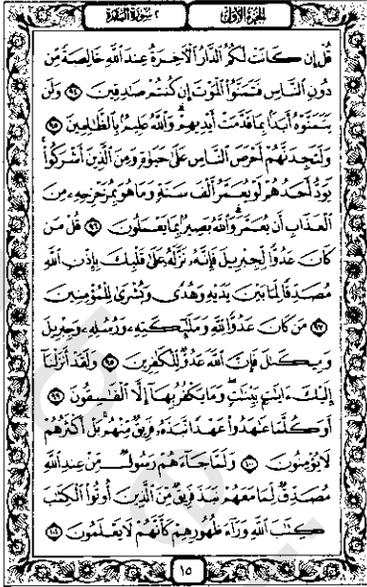
مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على

وجه التدليس والإضلال، ونسبته

وترويجه إلى من برأه الله منه وهو

سليمان عليه السلام . وتعليم الملكين

امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم



قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل * ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير * ينهى الله المؤمنين أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم * كما سئل موسى من قبل * والمراد بذلك أسئلة التعمت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرنا الله جهرة﴾ .

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ ويقرهم^(١) عليه، كما في قوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ و ﴿يسألونك عن اليتامى﴾ ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ .

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال أنهم ودوا ﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾ وسعوا في ذلك، وأعملوا المكاييد، وكيدهم راجع عليهم، [كما] قال تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم.

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح

تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * النسخ: هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض.

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ من آية ﴿أو نُنسِها﴾ أي: ننسها العباد، فنزيلها من قلوبهم، ﴿نات بخير منها﴾ وأنفع لكم ﴿أو مثلها﴾ .

فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول، لأن فضله تعالى يزداد خصوصاً على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل.

وأخبر أن من قذح في النسخ فقد قذح في ملكه وقدرته، فقال: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض﴾ فإذا كان مالكا لكم، متصرفاً فيكم تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيها، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام. فالعبد مدير مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟

وهو أيضاً ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم من حيث لا يشعرون بلفظه.

﴿١٠٨ - ١١٠﴾ * أم تريسدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من

حتى يأتي الله بأمره .

ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا * إن الله على كل شيء قدير * .

ثم أمرهم [الله] بالاستغفال في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجوده عنده وافرأ موفراً قد حفظه * إن الله بما تعملون بصير * .

﴿١١١ - ١١٢﴾ * وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم

بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أمان غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فاتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يُقِيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدعٍ عكس ما ادعى بلا برهان

فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر.

واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد.

لهم خزي في الدنيا أي: فضيحة كما تقدم، ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾.

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾.

بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾.

وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿١١٥﴾ ﴿و الله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾ أي: ﴿و الله المشرق والمغرب﴾، خصّهما بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاريها، فإذا كان مالكاً لها، كان مالكاً لكل الجهات.

﴿فأينما تولوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فلئن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذوراً بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذوراً أو مأموراً.

وبكل حال، فما استقبال جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربهم ﴿فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾، فيه

بعضاً، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم.

فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويعكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه^(١) لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتنل أوامر ربه واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك.

﴿١١٤﴾ ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا، ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات.

﴿وسعى﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه، ﴿في خرابها﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها وتقديرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخبروا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها، محادة الله، ومشاقة. فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعاً وقدرًا، إلا خائفين ذليين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً، حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى، سلب الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه. وهكذا كل من اتصف بوصفهم،



لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان غلب كذبهم بتلك الدعوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس بأمانيتكم ودعوايتكم، ولكن ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أي: أخلص لله أعماله، متوجهاً إليه بقلبه، ﴿وهو﴾ مع إخلاصه ﴿محسن﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وخدمهم.

فلهم أجرهم عند ربهم وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب. ويفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

﴿١١٣﴾ ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والחסد إلى أن بعضهم ضلَّ بعضاً، وكفر بعضهم

(١) كذا في ب، وفي أ: وأنه.

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهدية ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن السنة. فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إنا أرسلناك﴾، والثالث دخل في قوله: ﴿بالحق﴾.

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقروا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملاً، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته عبادته أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهدية قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها وسبر أحواله، عَرَفَ أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بشيراً﴾ أي: لمن أطاعك بالمعصاة الدنيوية والأخروية، ﴿نذيراً﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي.

﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿١٢٠﴾ ﴿ولن ترضى عنك اليهود

﴿وقوموا لله قانتين﴾.

ثم قال: ﴿بديع السماوات والأرض﴾، أي: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق.

﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يؤمنون ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾، أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا، كما كلم الرسل. ﴿أو تأتينا آية﴾، يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ الآية وقالوا: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة﴾، الآيات وقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾، الآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يؤمنون﴾.

فكلم موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾، فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهاً لا تشببه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسر أركم ونياتكم.

فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقيل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون ﴿بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، وقالوا: أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿اتخذ الله ولداً﴾، فنبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تقصصهم إياه.

﴿سبحانه﴾، أي: تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله. فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعثر به نقص بوجه من الوجوه.

ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بل له ما في السماوات والأرض﴾، أي: جميعهم ملكه وعبده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالماليك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبده، مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام: وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص: وهو قنوت العبادة.

فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى:

جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الحميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟

ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام، حاطاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يشوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَوَجَّعْنَاهُ لِنفْسِهِ﴾ أي: جعله أئماً، يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام، ويمجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيبه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا ركعتنا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافاً، فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها: من الطواف والسعي، والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار، والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج.

فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾ أي: معبداً، أي: اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له.

﴿وَعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ أي: أوحينا إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات

إبراهيم ربه بكلمات فأمتهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين * وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴿يخبر تعالى عن عبده وخليته إبراهيم عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتحنته بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان، من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره ويزكو عمله، ويخلص ذممه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام.

فأتم ما ابتلاه الله به وأكملة ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم يزل الله شكوراً، فقال: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الثناء الدائم والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعنم الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سبيله.

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلم درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله، ومحبتة أن يكثُر فيهم المرشدون، فله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية.

فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آتته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على

ولا النصرارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴿يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصرارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاء إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إن هدى الله﴾ الذي أرسلت به ﴿هو الهدى﴾.

وأما ما أنتم عليه فهو الهوى، بدليل قوله: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾.

فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخله في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون * يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾.

يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومن عليهم به منة مطلقة، أنهم ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، لا من قال منهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ ويكفرون بما وراءه.

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿١٢٤ - ١٢٥﴾ ﴿وَإِذِ اسْتَسْلَىٰ



رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم».

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم، وأخبر عن صفاته الكاملة، قال تعالى:

﴿١٣٠ - ١٣٤﴾ «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين» إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون * تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.

أي: ما يرغب عن ملة إبراهيم بعدما عرف من فضله، إلا من سفه نفسه، أي: جهلها وامتنعها ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون، كما أنه لا أرشد وأكمل، ممن رغب في ملة إبراهيم، ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة، فقال: «ولقد اصطفيناه في الدنيا» أي: اخترناه ووقفناه للأعمال، التي صار بها من

الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم. أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل^(١) فيه النفع العميم. ودعوا لأنفسهما، وذريتهما بالإسلام، الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه التضمن لانقياد الجوارح. «وأرنا مناسكنا» أي: علمناها على وجه الإراءة والمشاهدة، ليكون أبلغ. يحتمل أن يكون المراد بالمناسك: أعمال الحج كلها، كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين كله والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليباً عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح، ولما كان العبد - مهما كان - لا بد أن يعثره التقصير ويحتاج إلى التوبة، قالوا: «وثب علينا إنك أنت التواب الرحيم».

«ربنا وابعث فيهم» أي: في ذريتنا «رسولا منهم» ليكون أرفع لدرجتهم، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة. «يتلو عليهم آياتك» لفظاً وحفظاً وتحفيظاً، ويعلمهم الكتاب والحكمة» معنى.

«ويزكيهم» بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبيري من الأعمال الرديئة التي لا تزكو النفوس^(٢) معها. «إنك أنت العزيز» أي: القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع على قوته شيء «الحكيم» الذي يضع الأشياء مواضعها، فيعزتك وحكمتك ابعث فيهم هذا الرسول، فاستجاب الله لهما فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي

والأقذار، ليكون «للطائفين» فيه «والعاكفين والركع السجود» أي: المصلين، قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد [الحرام]، ثم الاعتكاف لأن من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة مع أنها أفضل، لهذا المعنى. وأضاف الباري البيت إليه لفوائد، منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك. ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه.

﴿١٢٦﴾ «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير» أي: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله بلداً آمناً، ويرزق أهله من أنواع الثمرات، ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين تأدباً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم.

فلما دعا لهم بالرزق وقبده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، قال تعالى: «ومن كفر» أي: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيمتنع فيها قليلاً «ثم أضطره» أي: أجنسه وأخرجه مكرهاً «إلى عذاب النار وبئس المصير».

﴿١٢٧ - ١٢٩﴾ «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب

(١) في ب: حتى يجعل.

(٢) في ب: النفس.

وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما، كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة. فقوله تعالى:

﴿قولوا﴾ أي: بأستتكم متواظفة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب، نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: **﴿قولوا﴾** إشارة إلى الإعلان بالعتيقة، والصدع بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله: **﴿آمناً﴾** ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث على الائتلاف، حتى يكون داعيهم واحداً، وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: **﴿قولوا آمناً بالله﴾** الخ، دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله: «أنا مؤمن» ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقروناً بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان.

فقوله: **﴿آمناً بالله﴾** أي: بأنه موجود، واحداً واحداً، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراجه بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه من الوجوه.

تعدون من بعدي؟ فأجابوه بما قرئت به عنه، فقالوا: **﴿نعبد الهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾** فلا نشرك به شيئاً، ولا نعدل به أحداً، **﴿ونحن له مسلمون﴾** فجمعوا بين التوحيد والعمل.

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالخنيفية لا باليهودية.

ثم قال تعالى: **﴿تلك أمة قد خلت﴾** أي: مضت **﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾** أي: كل له عمله، وكل سيجازي بما فعله، لا يؤخذ^(١) أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحد إلا إيمانه وتقواه فاشتغالكم بهم وادعائكم أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

﴿١٣٥﴾ **﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** أي: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال.

قل له^(٢) **﴿جيباً جواباً شافياً﴾** **﴿بل﴾** نثب **﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾** أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، قائماً بالتوحيد، تاركاً للشرك والتثديد.

فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الأعراض عن ملته الكفر والغواية.

﴿١٣٦﴾ **﴿قولوا آمناً بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾** هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام،

وَأَلَيْنَ الْيَهُودَ نَبِيَّتَ النَّصْرَى عَلَى سَبِيهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى سَبِيهِ وَهُمْ يَشْكُرُونَ كَذَلِكَ قَالَ
الذِّكْرُ لَا تَعْلَمُونَ يَدُلُّ قَوْلُهُ فَأَنَّهُ يَتَكَبَّرُ بِدِينِهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣٥﴾ وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْ سَخِ
مَسْجِدِ اللَّهِ أَنْ يَنْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ وَسَقَى فِي حَيْثُ أُنزِلَتْ
مَا كَانَتْ لَمْ تَدْخُلْهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَمْ يَفِي الدُّنْيَا نَبِيٌّ
وَلَمْ يَفِي الْآخِرَةِ عَدَاةٌ عَلَيْهِمْ ﴿١٣٦﴾ وَفِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
فَأَنبَأَتْ قَوْلًا فَتَرَى وَفِي اللَّهِ إِلَهُكُمْ وَرَبُّكُمْ عَلِيمٌ ﴿١٣٧﴾ وَقَوْلًا
أَعْتَدَ اللَّهُ لِلَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
كُلِّ لَمْ يَشْكُرُوا ﴿١٣٨﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِنَّا
فَصَّيْنَا أُمَّرًا فَسَأَلْنَا لَمْ يَكُنْ يَكُونُ ﴿١٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَكْفُرُونَ لَوْلَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ لَأَرْسَلْنَا إِلَهُ كَذَلِكَ
قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَسْتَلِ قَوْلَهُمْ تَكْفُرْتُمْ فَلَوْلَهُمْ
فَدَيْتُمْ أَزْوَاجًا لَقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ حُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ

المصطفين الأخيار.

﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿إذ قال له ربه أسلم قال﴾ امثالاً لربه **﴿أسلمت لرب العالمين﴾** إخلاصاً وتوحيداً، ومحبة وإنابة، فكان التوحيد لله نعمته.

ثم ورثه في ذريته ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه، فأنتم. يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد واتباع خاتم الأنبياء، قال: **﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين﴾** أي: اختاره وتحيره لكم رحمة بكم، وإحساناً إليكم، فقوموا به واتصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكرأ عليهم: **﴿أم كنتم شهداء﴾** أي: حضوراً **﴿إذ حضر يعقوب الموت﴾** أي: مقدماته وأسبابه، فقال لبنيه على وجه الاختيار، ولتقر عينه في حياته بامثالهم ما وصاهم به: **﴿ما**

(٢) في ب: قال له.

(١) في ب: لا يؤخذ.

شقاق فيسكفيكمهم الله وهو السميع العليم ﴿أي: فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به﴾ - يا معشر

المؤمنين - من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿فقد اهتدوا﴾ للضراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، و«الهدى» هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم والضللال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالمشاقق هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاققة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، كفاك الله شرهم.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجل بعضهم، وشزدهم كل مشرد.

ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

﴿١٣٨﴾ ﴿صيفة الله ومن أحسن من الله صيفة ونحن له عابدون﴾ أي: الزوا صيفة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صيفة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام

عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدئ ولا هملأ.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا للخير، ولا يتهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يفني عن العمل، قال: ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿له﴾ على العامل، وهو ﴿مسلمون﴾

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعمة الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدىً ورحمةً ليقوم يؤمنون.

﴿١٣٧﴾ ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في

﴿وما أنزل إلينا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيب الماضية والمستقبل، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

﴿وما أنزل إلى إبراهيم﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليه في الآية لشرفهم، ولإتيانهم بالشرائع الكبار فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ أي: بل تؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفترقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به، وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم.

وفي قوله: ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾ دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع.

وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿من ربهم﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل

لثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحت الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور، فلهاذ قال - على سبيل التعجيب المتقرر للعقول الزكية - : ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته^(١).

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلّى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلّى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوضّفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه وشرذ عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده.

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

وفي قوله: ﴿ونحن له عابدون﴾ بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، لأن «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحرص.

وقال: ﴿ونحن له عابدون﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً.

﴿١٣٩﴾ ﴿قل أتجاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ الحاجة: هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق في المسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقدم الحجة على المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت ممارسة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحداً، ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وإياكم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفرقة بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا يتنازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق الحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿١٤٠﴾ ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل

أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أأنتم أعلم أم الله﴾ فالله يقول: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً.

فإنما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتاج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلماذا كان ظلمهم أعظم الظلم. ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموا وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلماذا قال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعدّها وآخّر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزأؤهم، وبئس النار مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها.

فيفيد ذلك الوعد والوعيد،

(١) كذا في ب، وفي أ: من صبغته.

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يظهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجنسون شيئاً، ولا يجرمون شيئاً، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشرب والملابس والمناكح، وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال أفضلها.

وهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أمة وسطاً﴾ [كاملين] ليكونوا ﴿شهداء على الناس﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود، فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل محتصين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شكّ شكاً في فضلها، وطلب مركزاً لها فهو أكمل الخلق نبياً ﷺ، فلهذا قال تعالى: ﴿ويكون الرسول

مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفه، ولا يلقي له ذهنه. ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية، ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ وقد كان في قوله «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به.

ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها عما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قل﴾ لهم مجيباً: ﴿الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلا شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلية تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه أن هذاكم لذلك، فالمعترض عليكم، معترض على فضل الله حسداً لكم وبغياً.

ولما كان قوله: ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾ ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنه الله عليها، فقال:

والترغيب والترهيب، ويقيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

﴿١٤١﴾ ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ تقدم تفسيرها، وكثرها لقطع التعلق بالخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿١٤٢ - ١٤٣﴾ ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ قد اشتملت الآية الأولى على: معجزة، وتسليية، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المسلم لحكم الله ودينه.

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو سنة ونصف - لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي يشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم

عليكم شهداء ﴿

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاهما نبيا .

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وسطاً﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك . وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك .

﴿١٤٣﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كتب عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولاً ﴿إلا لنعلم﴾ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها .

ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثواباً ولا عقاباً، لتمام عدله وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿من يتبع الرسول﴾ ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور مدبر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالمتصرف الذي مقصوده الحق، مما يزيد ذلك إيماناً وطاعة للرسول .

وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق واتبع هواه، فإنه يزداد كفراً إلى كفره، وحيرة إلى حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها .

﴿وإن كانت﴾ أي: صرفك عنها

﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركناً من أركان الإسلام، وهادماً للذنوب والآثام، فلهدأ خف عليهم ذلك، وشق على من سواهم .

ثم قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممنوع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكأن في هذا احترازاً عما يقال إن قوله: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها .

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح .

وقوله: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي: شديد الرحمة بهم

عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها .

﴿١٤٤﴾ ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ يقول الله لنبينا: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وجهك﴾ ولم يقل: «بصرك» لزيادة اهتمامه، ولأن تقلب الوجه مستلزم لتقلب البصر .

﴿فلنولينك﴾ أي: نوجهك لولايتنا إياك، ﴿قبلة ترضاها﴾ أي: تحبها وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان، ﴿وحيثما كنتم﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي: جهته .

ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها، فرضها ونقلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، ولما ذكر تعالى فيما تقدم المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عناداً وبغياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب .

فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعارض عليه، وأن المعارض معاند، عارف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعارض العقوبة الدنيوية والأخروية، فهذا قال تعالى: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعارضين، وتسلية للمؤمنين.

﴿١٤٥﴾ ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك لإل من الظالمين﴾

كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة، وتلطف بهديتهم، ويجزئ إذا لم يتقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرد عن أمر الله واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمداً وعدواناً، فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين لا عن جهل، فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو ﴿أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية﴾

أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك، ويبين ما تدعو إليه، ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ أي: ما تبعوك، لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيدها ويتفجع بها من يتطلب الحق وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه.

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد، وهم الأعداء حفيقة الحسدة، وقوله: ﴿وما أنت بتابع قبيلتهم﴾ أبلغ من قوله: ﴿ولا تتبع﴾ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع

ذلك منه، ولم يقل: ﴿ولو أتوا بكل آية﴾ لأنهم لا دليل لهم على قولهم.

وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم ببطلانها، للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ إنما قال:

﴿أهواءهم﴾ ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهوية^(١) نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾

﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل، ﴿إنك إذا﴾ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام، ﴿لمن الظالمين﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فأثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك، وأيضاً فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته^(٢)، فغيره من باب أولى وأحرى.

﴿١٤٦ - ١٤٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين

يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، لكن فريقاً منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنهم، وهم يعلمون ﴿ومن أظلم ممن

وَلَنْ نَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَىٰ سَخِرَ بِكُمْ وَالْمُغَلَّبِينَ الَّذِينَ هَدَىٰ إِلَهُهُمُ الْعَشْرَ وَالشِّرْكَاءَ الَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ وَمَا أَكْبَرُ مِنْ عَدَاؤِهِمْ إِنَّكُم مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ وَلَوْلَا دَرَسُوا هَدَىٰ إِلَهُهُمُ الْغَيْبَ وَالشِّرْكَاءَ الَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ وَمَا أَكْبَرُ مِنْ عَدَاؤِهِمْ إِنَّكُم مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٧﴾ وَالَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ وَلَوْلَا دَرَسُوا هَدَىٰ إِلَهُهُمُ الْغَيْبَ وَالشِّرْكَاءَ الَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ وَمَا أَكْبَرُ مِنْ عَدَاؤِهِمْ إِنَّكُم مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَالَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ وَلَوْلَا دَرَسُوا هَدَىٰ إِلَهُهُمُ الْغَيْبَ وَالشِّرْكَاءَ الَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ وَمَا أَكْبَرُ مِنْ عَدَاؤِهِمْ إِنَّكُم مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٩﴾ وَالَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ وَلَوْلَا دَرَسُوا هَدَىٰ إِلَهُهُمُ الْغَيْبَ وَالشِّرْكَاءَ الَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ وَمَا أَكْبَرُ مِنْ عَدَاؤِهِمْ إِنَّكُم مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾

كتم شهادة عنده من الله﴾ وفي ضمن ذلك تسلية للرسول والمؤمنين، وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم يكتموا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن [به] ومنهم من كفر [به] جهلاً، فالعالم عليه إظهار الحق وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه وتقيبحة للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك، فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

﴿الحق من ربك﴾ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقاً من كل شيء، لما اشتمل عليه من المطالب العالية والأوامر الحسنة، وتركيبه النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ودفع مفاسدها، لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكير فيه لا محالة دافع للشك، موصل لليقين.

﴿١٤٨﴾ ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت

احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركون، فإنه لو بقي مستقبلاً بيت المقدس لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجردون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم وأنه من ملة إبراهيم وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟ فباستقبال الكعبة^(٢) قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركون، وانقطعت حججهم عليه.

إلا من ظلم منهم، أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها، ولا يلقي لها بال، فلماذا قال تعالى: ﴿فلا تحسوهم﴾ لأن حججهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي أصل^(٣) كل خير، فمن لم يحش الله لم يتكف عن معصيته، ولم يمثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيها فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلماذا بسطها الله تعالى وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعاً، أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فول وجوهكم﴾ والأمة عموماً في قوله: ﴿فولوا وجوهكم﴾

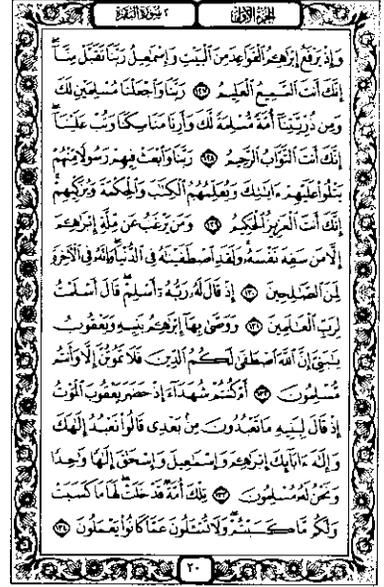
المسارعة إلى الخير وينشطها، ما رتب الله عليها من الشواب، قال: ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله ﴿ليجزى الذين أسأوا بما عملوا، ويمزي الذين أحسنوا بالحسن﴾.

ويستدل هذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وأدائها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية!!

﴿١٤٩ - ١٥٠﴾ ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحسوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ أي: ﴿ومن حيث خرجت﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أي: جهته.

ثم خاطب الأمة عموماً، فقال: ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ وقال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ أكده بـ «إن» واللام، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل التشهي لا الامتثال.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقال هنا: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم



بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾ أي: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به.

والأمر بالاستيقاق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستيقاق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة وصيام وزكوات^(١) وحج وعمرة وجهاد، ونفع متعد وقاصر.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على

(٣) في ب: رأس.

(٢) في ب: القبلة.

(١) في ب: زكاة.

لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعل يده ﷺ وبسببه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهذا قال تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضل ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبه وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال: ﴿واشكروا لي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعترافاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وفي الإتيان بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضده الكفر، نهي عن ضده، فقال: ﴿ولا تكفرون﴾ المراد بالكفر هاهنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عاماً، فيكون الكفر أنواعاً كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿١٥٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع

اتضح الحق انضاحاً ظاهراً، فله الحمد على ذلك.

﴿١٥١ - ١٥٢﴾ ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة، ليس ذلك ببدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه.

﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني.

﴿ويزكيكم﴾ أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيبها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿ويعلمكم الكتاب﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، ﴿والحكمة﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها.

فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلاً في تعليم الكتاب، لأن السنة تبين القرآن وتفسره، وتعبّر عنه، ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين،

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب، ومنها قوله: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾.

ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتنون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة، قال: ﴿ولأنتم نعمتي عليكم﴾.

فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته، ما أنتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

فله الحمد على فضله، الذي لا يبلغ له عدداً، فضلاً عن القيام بشكره، ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى - من رحمته - بالعبادة، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين حتى إن من جملة ذلك أنه يقبض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيوضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما

يرزقون ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴿

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدي من المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح والاستبشار^(٣)، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور^(٤) خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش. وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد: ﴿ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾.

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

﴿ ١٥٥ - ١٥٧ ﴾ ﴿ ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين ﴾ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿ أولئك

في قوله تعالى: ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفاً، وداعياً يدعو إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿ ١٥٤ ﴾ ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ لما ذكر تبارك وتعالى، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور^(٢)، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشقتها في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضاهاها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون.

فالشهداء ﴿ أحياء عند ربهم

الصابرين ﴾ أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿ بالصبر والصلاة ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تسترْكها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرح المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشاق خصوصاً إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه، واللجأ إليه والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه ﴿ مع الصابرين ﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة، وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه، وهذه [مقبة عظيمة]^(١) للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرافاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: الأحوال.

(٣) في ب: وهو الاستبشار.

(٤) في ب: طير.

من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعيب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بصد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلقت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب.

﴿١٥٨﴾ **﴿إن الصفا المروءة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾** تجبر تعالى أن الصفا المروءة وهما معروفان **﴿من شعائر الله﴾** أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: **﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾** فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم».

﴿فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفي تعالي الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو

التسخط قولاً وفعلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصيره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالشواب، فلهذا قال تعالى: **﴿ويشتر الصابرين﴾** أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: **﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾** وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما بما تقدم ذكره.

﴿قالوا إنا لله﴾ أي: مملكون لله، مديرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بممالكنا وأموالنا، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي أرحم عبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تديبه، لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجع إليه من أقوى أسباب الصبر.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بالصبر المذكور **﴿عليهم صلوات من ربهم﴾** أي: ثناء وتنويه بحالهم **﴿ورحمة﴾** عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، **﴿وأولئك هم المهتدون﴾** الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم

عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون **﴿أخبر تعالى أنه لا بد أن يبطل عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عباده **﴿بشيء من الخوف﴾** من الأعداء **﴿والجوع﴾** أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.**

﴿ونقص من الأموال﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق وضياع، وأخذ الظلمة للأموال، من الملوك الظلمة وقطاع الطريق، وغير ذلك.

﴿والأنفس﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، **﴿والشمرات﴾** أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر؛ ببرد أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية من جراد^(١) ونحوه.

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العلم الخبير أخير بها، ف وقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبتان، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمات، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له [السخط الدال على شدة النقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحسب نفسه عن

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش وفي

مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها وهذا يطمسها ويعميها^(١)، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إلا الذين تابوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاعاً، وعزماً على عدم المعاودة، ﴿وأصلحوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً، حتى يبين ما كتمه، ويبيدي ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التواب﴾ أي: الرجاء على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا، ﴿الرحيم﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأتابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفًا وكرماً، هذا حكم التائب من الذنب.

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه ولم يتب عن قريب، فأولئك ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، ﴿خالدين فيها﴾ أي: في اللعنة أو في العذاب والمعنيتين^(٢) متلازمان.

﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتدرون.

﴿١٦٣﴾ ﴿والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ يجبر تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إله واحد﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجودها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿١٥٩ - ١٦٢﴾ ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴿هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿من البينات﴾ الدالات على الحق المظهرات له، ﴿والهدى﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموا، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يلعنهم الله﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته.

﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته، حتى الخوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزله الله، مضاد لأمر الله

عمرة، بخلاف الطواف بالبيت فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتبعه الله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتبعه له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿ومن تطوع﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها الله تعالى ﴿خيراً﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿فهو خير له﴾ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شرأه إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل.

﴿فإن الله شاكر عليم﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيه عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامثل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

(٢) في ب: وهما متلازمان.

(١) في ب: وهذا يسمى في طمسها وإخفائها.

شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو، ولا مثل ولا نظير، ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه ﴿الرحمن الرحيم﴾ المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عزف عبادة نفسه بصفاته وآلانه، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم وديناهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وأن من أظلم الظلم وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق^(١) من تراب برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوي، الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء.

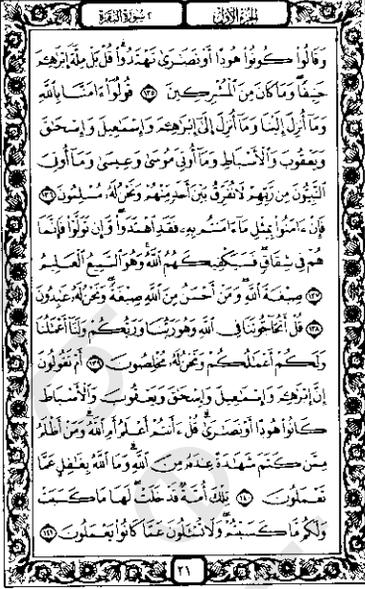
ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع [جميع] النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

﴿١٦٤﴾ ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب

المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون﴾.

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته، وسائر صفاته، ولكنها ﴿للقوم يعقلون﴾ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعل حسب ما من الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي ﴿خلق السموات﴾ في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد.

وفي خلق ﴿الأرض﴾ مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها، والاعتبار. ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضروراتهم وحاجاتهم. وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشؤون عباده، ﴿و﴾ في ﴿اختلاف الليل والنهار﴾ وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت. كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به، وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم،



وإخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

﴿و﴾ في ﴿الفلك التي تجري في البحر﴾ وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدروهم عليها.

ثم سخر لها هذا البحر العظيم، والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنظم معاشهم.

فمن الذي ألهمهم صنعها وأقدروهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر تجري فيه بأذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذي خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته،

(١) في ب: المخلوقين.

هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مديبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿١٦٥ - ١٦٧﴾ ثم قال تعالى:

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حياً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب * إذ تبرزوا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتزؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾.

ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيل لكل شك، ذكر هنا أن ﴿من الناس﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أنداداً لله، أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحججة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد

فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دمه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع^(١) أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي ﴿تصريف الرياح﴾ باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً ودبوراً، وبين ذلك، وتارة تشير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب.

فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنوات، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع ومحبة وإنابة وعبادة؟

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرت أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفاً، ويصرفه عناية وعظماً، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه، وألطف امتنانه!!

أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا بيره، وهم يستعينون بذلك على مساحطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبوره وعفوه وصفحته، وعميم لطفه؟

فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في



وخضعت لجبروته.

و غاية العبد الضعيف، أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم.

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ وهو المطر النازل من السحاب.

﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها.

أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟ ﴿وبث فيها﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع.

(١) في ب: ومنها أنه بث فيها.

يتمنونها، حنقاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرؤوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قضي الأمر: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾.

﴿١٦٨ - ١٧٠﴾ ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون * وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يتدون﴾ هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتنع عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب وثمار وفواكه وحيوانات، حالة كونها ﴿حلالاً﴾ أي: محلاً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه عرم، أو معيناً على عرم.

﴿طيباً﴾ أي: ليس بخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير، والحيات كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرّم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرّم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم بتابع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خطوات الشيطان﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوايب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم،

ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحل أعمالهم وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربّه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾.

وحيث يذم المتبوعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من متبوعيههم، بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيئات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه وأمانى

مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدهم ليقربوهم إليه، وفي قوله: ﴿اتخذوا﴾ دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول﴾.

﴿إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن﴾ فالمخلوق ليس نداً لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عدهاء مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر الأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً، سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿والذين آمنوا أشد حياً لله﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبتهم عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ بانتخاذ الأنداد والافتقار لغير رب العباد وظلموا الخلق بصددهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم.

﴿إذ يرون العذاب﴾ أي: يوم القيامة عاناً بأبصارهم، ﴿أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾ أي: تعلموا علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فيتبين لهم في ذلك اليوم

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء.

فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل ونبذ الحق. أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو انتصف بالمكر والخديعة والدهاء أنه من أسفه السفهاء.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾. هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾. فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً» لأن المؤمن أياح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله فلم يعبده وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويحلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إنما حرم

والأخرية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملته المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهد على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشرف في طاعته، وكل الخسران في ولايته، الذي لا يأمر إلا بشراً، ولا ينهى إلا عن خير. ثم أخبر تعالى عن حال المشركين؛ إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك، وقالوا: ﴿بل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾. فافتقروا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأباؤهم أجهل الناس وأشدهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهمية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً.

ثم قال [تعالى]: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾.

لما تبين تعالى عدم انقيادهم لما جاء به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً يتفهمهم، فلهذا كانوا صمّاً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكمياً فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا. وهو أصدق القائلين - بعداوتته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقيح الأشياء وأعظمها مفسدة، فقال: ﴿إنما يأمركم بالسوء﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿والفحشاء﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تنهى قيحه، كالزنا وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل، ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل، ﴿وإن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبت له نفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله نداءً، أو وثاناً تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات لليلة الغلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معانٍ اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبذلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدر على.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فلينظر العبد نفسه مع أي: الداعيين هو، ومن أي: الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية

والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها؟! **﴿ذلك﴾** المذكور، وهو مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية، من أباه واختار سواها.

﴿بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأيضاً ففي قوله: **﴿نزل الكتاب بالحق﴾** ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، أو الذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم **﴿لفي شقاق﴾** أي: محادة، **﴿بعيد﴾** عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكافرين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة. ثم توجه لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق، والمنزعة

ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها. أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محظور اضطر له الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن [قله الحمد والشكر أولاً وآخرأ، وظاهراً وباطناً].

﴿١٧٤ - ١٧٦﴾ **﴿إن السذبن يكتبون ما أنزل الله من الكتاب ويشترتون به ممناً قليلاً أولئك ما ياكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم﴾** أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار * ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد* هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله، من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله، أن يبينوه للناس ولا يكتموه، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي ونبذ أمر الله، فأولئك: **﴿ما ياكلون في بطونهم إلا النار﴾** لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأفحح المكاسب وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، **﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾** بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، **﴿ولا يزكهم﴾** أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهؤلاء نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى،

عليكم الميتة* وهي ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرّة لرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر^(١)، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسمك البحر، فإنه حلال طيب.

﴿والدم﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى.

﴿وما أهل به لغير الله﴾ أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: **﴿طيبات﴾** فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: **﴿حلالاً طيباً﴾** كما تقدم.

وإنما حرّم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفاً بنا وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا **﴿فمن اضطر﴾** أي: ألجىء إلى المحرّم بجوع وعدم، أو إكراه، **﴿غير باغ﴾** أي: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، **﴿ولا عاد﴾** أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيع له اضطراراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، فلا إثم [أي: جناح] عليه، وإذا ارتفع الجناح^(٢) رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهى أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، وبأنثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلماذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة، فقال: **﴿إن الله غفور رحيم﴾**.

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة

(١) في ب: مرض.

(٢) في أ: (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب، وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).

عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة .

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرب بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان .

﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والعهد: هو الالتزام بالزمام الله أو الزمام العبد لنفسه . فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبه الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والنذور، ونحو ذلك .

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره .

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم .

فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها .

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح ورياح ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله [تعالى] .

يجب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر .

وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ فكل هؤلاء ممن أتى المال على حبه .

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك . من الأقارب الذين تتوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم .

ومن يتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمة [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فُقد أبأؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل، فمن رحم يتيماً غيره رُجم يتيماً .

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾: وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه وبما يتيسر، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته، ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها .

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرض جنانية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنياً ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة

والمخاصمة، والله أعلم .

﴿١٧٧﴾ ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والمؤفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ يقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجidal من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك .

﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص .

﴿واليوم الآخر﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت .

﴿والملائكة﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ، ﴿والكتاب﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام، ﴿والنبيين﴾ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ .

﴿وأتى المال﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال على حبه أي: حب المال، بيّن به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرجه العبد .

فمن أخرج مع حبه له تقرباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال



الدية إلى الولي .

فإذا عفا عنه وجب على الولي [أي : ولي المقتول] أن يتبع القتال **﴿بالمعروف﴾** من غير أن يشق عليه ، ولا يحمله ما لا يطيق ، بل يحسن الاقتضاء والطلب ، ولا يخرج .

وعلى القتال **﴿أداء إليه بإحسان﴾** من غير مطل ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية ، فهل جزاء الإحسان إليه بالعمو إلا الإحسان بحسن القضاء ، وهذا مأثور به في كل ما ثبت في ذم الناس للإنسان ، مأثور من له الحق بالاتباع بالمعروف ، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان^(٢) .

وفي قوله : **﴿فمن عفي له من أخيه﴾** تروقيق وحث على العفو إلى الدية ، وأحسن من ذلك العفو مجاناً .

وفي قوله : **﴿أخيه﴾** دليل على أن القتال لا يكفر ، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان ، فلم يخرج بالقتل منها ، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلمها ، وإنما ينقص بذلك إيمانه .

وإذا عفا أولياء المقتول ، أو عفا بعضهم ، احتقن دم القتال ، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم ، ولهذا قال : **﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾** أي :

فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم ، حتى أولياء القتال ، حتى القتال بنفسه ، إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص ، وتمكينه^(١) من القتال ، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ويمنعوا الولي من الاقتصاص ، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين .

ثم بين تفصيل ذلك ، فقال : **﴿الحر بالحر﴾** يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر ، **﴿والأنثى بالأنثى﴾** والأنثى بالذكر ، والذكر بالأنثى ، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله : **﴿الأنثى بالأنثى﴾** مع دلالة السنة ، على أن الذكر يقتل بالأنثى ، وإن علوا ، فلا يقتلان بالولد ، لورود السنة بذلك ، مع أن في قوله : **﴿القصاص﴾** ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده ، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة ، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله ، أو أذية شديدة جداً من الولد له .

وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة ، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة .

وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعهده ، والعبد بالعبد ، ذكراً كان أو أنثى ، تساويت قيمتهما أو اختلفت ، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد ، لكونه غير مساو له ، والأنثى بالأنثى ، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم ، فلم يميز قتل الرجل بالمرأة ، وتقدم وجه ذلك .

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل ، وأن الدية بدل عنه ، فلهذا قال : **﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾** أي : عفا ولي المقتول عن القتال إلى الدية ، أو عفا بعض الأولياء ، فإنه يسقط القصاص وتجب الدية ، وتكون الخيرة في القود واختيار

﴿وحين البأس﴾ أي : وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم ، لأن الجلاء يشق غاية المشقة على النفس ، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر ، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتساباً ، ورجاء لشواب الله [تعالى] الذي منه النصر والمعونة التي وعدا الصابرين .

﴿أولئك﴾ أي : المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة ، والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره ، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقته الإنسانية ، فأولئك هم **﴿الذين صدقوا﴾** في إيمانهم ، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم ، **﴿وأولئك هم المتقون﴾** ؛ لأنهم تركوا المنحطور وفعّلوا المأمور ؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضمناً ولزوماً ، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله ، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات ، ومن قام بها كان بما سواها أقوم ، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المتقون .

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوي والأخروي ، مما لا يمكن تفصيله في [مثل] هذا الموضوع .

﴿١٧٨ - ١٧٩﴾ **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون * يمتن تعالى على عباده المؤمنين ، بأنه فرض عليهم **﴿القصاص في القتلى﴾** أي : المساواة فيه ، وأن يقتل القتال على الصفة التي قتل عليها المقتول ، إقامة للعدل والقسط بين العباد .

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين ،

(٢) في ب : بالإحسان .

(١) في ب : ويمكنه .

أي: يطيقون الصيام **﴿فدية﴾** عن كل يوم يفطرونه **﴿طعام مسكين﴾** وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتماً فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم، ولهذا قال: **﴿وأن تصوموا خير لكم﴾**

ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر [وقيل: **﴿وعلى الذين يطيقونه﴾** أي: يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير فدية عن كل يوم مسكين^(١)، وهذا هو الصحيح^(٢)]

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام.

فلماً قرره وبين فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال: **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضاً منسوخة، [فقال] **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد^(٣) تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية

لكم أن تناقسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصتكم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: **﴿لعلكم تتقون﴾** فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهي.

فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر لماعته، والطاعات من خصا، التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق الخوج أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

ثم سهل تسهلاً آخر، فقال: **﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾** وذلك للمشقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: **﴿فعدة من أيام﴾** فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وقوله: **﴿وعلى الذين يطيقونه﴾**

عن الجور والخنف، وهو الميل بها عن خطأ، من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بقرينة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليه إنثم، كما على مبدل الوصية الجائزة، ولهذا قال: **﴿إن الله غفور﴾** أي: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غصّ من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدلّت هذه الآيات على الحث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائزة.

﴿١٨٣ - ١٨٥﴾ يا أيها الذين

أمتوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون * شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون * يخبر تعالى بما من به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تشييط لهذه الأمة بأنه ينبغي

(٣) في ب: أبلغ تسهيل.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) ظاهر أن المراد عن كل يوم طعام

مسكين.

وتضيئوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك .

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه .

وفيه : دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد . وفيه : أيضاً دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق .

﴿ثم﴾ إذا طلع الفجر ﴿أتموا الصيام﴾ أي : الإمساك عن المفطرات ﴿إلى الليل﴾ وهو غروب الشمس ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحتها^(١) عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناء بقوله : ﴿ولا تبشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي : وأنتم متصفون بذلك، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله [تعالى]، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد .

ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس . وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف .

﴿تلك﴾ المذكورات - وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حدود الله﴾ التي حدها لعباده، ونهاهم عنها، فقال : ﴿فلا تقربوها﴾ أبلغ من قوله : ﴿فلا تفعلوها﴾ لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة

الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة . ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم، كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ .

﴿١٨٧﴾ ثم قال تعالى : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تبشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تسلك حدود الله فلا تقربوها كذلك بين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ كان في أول فرض الصيام، يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء تام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به .

﴿فتاب﴾ الله ﴿عليكم﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته - موجياً للائم ﴿وعفا عنكم﴾ ما سلف من التخون .

﴿فالآن﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿باشروهن﴾ وطأ وقبلة لمسأ وغير ذلك .

﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي : انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح .

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها

السهولة في أصله . وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات . وهذه جملة لا يمكن تفصيلها لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات .

﴿ولتكملوا العدة﴾ وهذا - والله أعلم - لثلاثتهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، رفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله [تعالى] عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد .

﴿١٨٦﴾ ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا : يا رسول الله، أقریب ربنا فنناجیه، أم بعيد فننادیه؟ فنزل : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال : ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ والدعاء نوعان : دعاء عبادة، ودعاء مسألة .

والقرب نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق .

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال : ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي : يحصل لهم الرشد

إليه .

والعبد مأمور بترك المحرمات ، والبعد منها غاية ما يمكنه ، وترك كل سبب يدعو إليها ، وأما الأوامر فيقول الله فيها : ﴿ تلتك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ فينهى عن مجاوزتها .

﴿ كذلك ﴾ أي : بين [الله] لعباده الأحكام السابقة أتم تبين ، وأوضحها لهم أكمل إيضاح .

﴿ يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه ، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه ، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم ، ولو علم تحريمه لم يفعله ، فإذا بين الله للناس آياته ، لم يبق لهم عذر ولا حجة ، فكان ذلك سبباً للتقوى .

﴿ ١٨٨ ﴾ ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ أي : أموال غيركم ، أضافها إليهم ؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله كما يحترم ماله ؛ ولأن أكله مال غيره يجريء غيره على أكل ماله عند القدرة .

ولما كان أكلها نوعين : نوعاً بحق ، ونوعاً بباطل ، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل ، قيده تعالى بذلك ، ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغضب والسرقة والخيانة في ودعة أو عارية ، أو نحو ذلك ، ويدخل فيه أيضاً أخذها على وجه المعاوضة ، بمعاوضة محرمة ، كعقود الربا والقمار كلها ، فإنها من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح ، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ، ونحوها ، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم ، وكذلك أخذهم أجره على عمل لم يقوموا بواجبه ، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح ، حتى يقصد بها وجه الله

تعالى ، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف ، والوصايا لمن ليس له حق منها ، أو فوق حقه .

فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع ، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة الحق ، وحكم له الحاكم بذلك . فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً ولا يحلل حراماً ، إنما يحكم على نحو مما يسمع ، وإلا فحقائق الأمور باقية ، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة ، ولا استراحة .

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة وحكم له بذلك ، فإنه لا يحل له ، ويكون أكلاً مال غيره بالباطل والإثم وهو عالم بذلك . فيكون أبلغ في عقوبته وأشد في نكاله .

وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه ، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ .

﴿ ١٨٩ ﴾ ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ يقول (١) تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ : جمع هلال ، ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها ، ﴿ قل هي مواقيت للناس ﴾ أي : جعلها الله تعالى بلطفه ورحمته على هذا التدبير يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر ، ثم يتزايد إلى نصفه ، ثم يشرع في النقص إلى كماله ، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم من الصيام ، وأوقات الزكاة ، والكفارات ، وأوقات الحج .

ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات ، ويستغرق أوقاتاً كثيرة ، قال : ﴿ والحج ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديدون المؤجلات ، ومدة



الإجازات ، ومدة العدد والحمل ، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق ، فجعله تعالى حساباً يعرفه كل أحد من صغير وكبير ، وعالم وجاهل ، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا النادر من الناس .

﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها ، تعبدوا بذلك ، وظناً أنه بر ، فأخبر الله أنه ليس ببر (٢) ، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم ، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله ، فهو متعبد ببدعة ، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم ، التي هي قاعدة من قواعد الشرع .

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب ، الذي قد جعل له موصلاً ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور ، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه ، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله ، يحصل به مقصوده ، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه ،

(٢) في ب : ليس من البر .

(١) في ب : فقلوه .

وإن كان السبب خفياً كمن جحد دين غيره، أو خانه في وديعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المائلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس في الغالب لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التثفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مع المتقين﴾ أي: بالعمون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من جبل الوريد.

﴿١٩٥﴾ ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تحب مؤنته.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارباً

لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو عمل مسببة أو حيات، أو يصعد شجراً أو بنياناً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة^(١) الإقامة على معاصي الله، والياس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجاء بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعبادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: ﴿أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك﴾.

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لليذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من [ذكر] أحكام الصيام فالجهاد، ذكر أحكام الحج

فقال: ﴿١٩٦﴾ ﴿وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتُمْ تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ يستدل بقوله [تعالى]: ﴿وأتموا الحج والعمرة﴾ على أمور: أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم».

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلًا.

الخامس: الأمر بإتقانتهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله وهو الحصر، فلماذا قال: ﴿فإن أحصرتم﴾ أي: منعت من الوصول إلى البيت لتكميلهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع.

﴿فما استيسر من الهدى﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدى، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه لما صدمهم

﴿١٩٧﴾ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴿١﴾ يخبر تعالى أن الحج واقع في أشهر معلومات ﴿٢﴾ عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس.

وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته، معروفة بينهم.

والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً.

﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه بصيره فرضاً ولو كان نفلًا.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام [بالحج] قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيد.

وقوله: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتين.

والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام.

والجدال وهو: الممازاة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج: الذل

﴿فما استيسر من الهدى﴾ أي: فعلية ما تيسر من الهدى، وهو ما يجزىء في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة وقيل الشروع في الحج، ومثلها القرآن لحصول النسكين له.

ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة المتعة، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿فمن لم يجد﴾ أي: الهدى أو ثمنه ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ «منى» ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع، «وسبعة إذا رجعت» أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

﴿ذلك﴾ المذكور من وجوب الهدى على المتمتع ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك.

﴿واتقوا الله﴾ أي: في جميع أموركم، بامتنثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه الأمور، واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم وتجراً على ترك الواجبات.

المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدى، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع، ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر بحلق أو غيره، لأن المعنى واحد، من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في بقية الشعر.

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليد الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدى محله، وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.

ويستدل هذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدى لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدى، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانتكاس له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو صدقة على ستة مساكين^(١)، أو نسك ما يجزىء في أضحية، فهو مخير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك من تقليد الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو التطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفه.

ثم قال تعالى: ﴿فإذا أمتتم﴾ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها.

(١) في ب: أو إطعام ستة مساكين.

ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلماذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿٢٠٤ - ٢٠٦﴾ «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد» .

لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصالحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه، فقال: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا» أي: إذا تكلم راق كلامه السامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه «يشهد الله على ما في قلبه» بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعله .

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المناق، فلماذا قال: «وهو ألد الخصام» أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيقتهم، والسماحة سجيبتهم .

﴿وإذا تولى﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك «سعى في الأرض ليفسد فيها» أي: يجهتد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض «ويهلك» بسبب ذلك «الحرث والنسل» فالزروع والشمار والمواشي تلتف وتنقص وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، «والله لا يحب الفساد» وإذا كان لا يحب الفساد فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً .

وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمله، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحث عليه .

﴿٢٠٣﴾ «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون» يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله» .

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، وليس ببعيد .

﴿فمن تعجل في يومين﴾ أي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني «فلا إثم عليه، ومن تأخر» بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد «فلا إثم عليه» وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أسيح كلا الأمرين، فالتأخر أفضل لأنه أكثر عبادة .

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم، والمتأخر فقط قيده بقوله: «لمن اتقى» أي: اتقى الله في جميع أموره وأحوال الحرج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان الجزء من جنس العمل .

﴿واتقوا الله﴾ بامتنثال أوامره واجتناب معاصيه، «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده،



الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر .

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: «من يقول ربنا آتنا في الدنيا» أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة من نصيب لرغبتة عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماهم ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين .

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقربه العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة .

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف، والنار،

وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتنتشر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري [تبارك] تعالى: ﴿فِي ظِلِّلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل.

فتوضع الموازين، وتنتشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازي بعمله، فهنالكَ بعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء والنزول والمجىء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدرح في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهو لاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهراً بل صريحاً، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالاتها على مذهبهم الباطل، أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر

فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات فاعلموا أن الله عزير حكيم ﴿هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا﴾ في السلم كافة ﴿أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه بنته.

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم.

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات﴾ أي: على علم يقين ﴿فاعلموا أن الله عزير حكيم﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر^(٣) الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

﴿٢١٠﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب. ، يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، الناخذون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيء على المفسدين،

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها المزمكي لها، وأنه ينبغي اختيار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من الناس بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتركيبتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و﴿أخذته العزة بالإثم﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر^(١) على الناصحين.

﴿فحسبه جهنم﴾ التي هي دار العاصين والمتكبرين، ﴿وليس المهاد﴾ أي: المستقر والمسكن عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الشواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياداً بالله من أحوالهم.

﴿٢٠٧﴾ ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوا طلباً لمرضاة الله ورجاء لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوا، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم^(٢).

﴿٢٠٨ - ٢٠٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين *

(١) في ب: والتكبر.

(٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من: ب، وقد قام النجار بتفسير الآية من عند نفسه انظر طبعة النجار (١/٢٥٢ - ٢٥٤) ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -.

(٣) في ب: العزيز المقام.

حساب ﴿ فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب .

﴿٢١٣﴾ **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** (أي: كان الناس) لأي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق و يقيموا الحجة عليهم، وقيل بل كانوا^(١) مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم **﴿مبشرين﴾** من أطاع الله بشمرات الطاعات، من الرزق والقوة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة .

﴿ومنذرين﴾ من عصى الله بشمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار .

﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق﴾ وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما .

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا

تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقرم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى وقام بحقوقها، فإنها ثبتت وتستمر، ويزيده الله منها .

﴿٢١٢﴾ **﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ولم يتقأدوا لشرعه، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها وعظموا من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين واستهزأوا بهم، وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه، فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره .

وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: **﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾** فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور .

والكفار تحتهم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدى الذي لا ينتهى له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين . ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: **﴿والله يرزق من يشاء بغير**

على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن الله ذاتاً لا تشبهها الذوات، فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه .

ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبت الله لنفسه وأثبت رسوله، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتته وما نفيتته، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً، فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيتته لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيتته إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبته به النفاة، أجاوبك به أهل السنة، لما نفيتته .

والحاصل أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمقول .

﴿٢١١﴾ **﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمه الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾** يقول تعالى: **﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾** تدل على الحق وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها .

بل كفروا بها وبدلوا نعمة الله كفراً، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله

(١) زيادة في هامش ب، لم يحدد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن الأقرب أن هذا محلها، ولهذا وليتسق الكلام يكون آخره هكذا (وقيل بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي كان الناس) مكرراً.

يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم ، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض ، وحصل النزاع والحصام وكثرة الاختلاف .

فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه ، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البيّنات والأدلة القاطعات ، ففصلوا بذلك ضلالاً بعيداً .

﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من هذه الأمة ﴿لَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب ، وأخطأوا فيه الحق والصواب ، هدى الله للحق فيه هذه الأمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ تعالى وتيسيره لهم ورحمته .

﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ . فعمّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم ، عدلاً منه تعالى ، وإقامة حجة على الخلق ، لئلا يقولوا : ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ وهدى - بفضله ورحمته ، وإعانتته ولطفه - من شاء من عباده ، فهذا فضله وإحسانه ، وذاك عدله وحكمته .

﴿٢١٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَل الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا وَالضَّرَّاءُ وَزُلُزْلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصَرَ اللَّهُ الْإِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبًا﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم ، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل ، أن من قام بدينه وشرعه لا يد أن يبتليه ، فإن صبر على أمر الله ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله ، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها ، ومن السيادة ألتها .

ومن جعل فتنه الناس كعذاب الله ، بأن صدّته المكاره عما هو بصدده ، وثنته المحن عن مقصده ، فهو الكاذب في دعوى الإيمان ، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتسني ومجرد الدعوى ، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه .

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿مَسْتَهْمِبًا﴾ أي : الفقير ﴿والضراء﴾ أي : الأمراض في

أبدانهم ﴿وزلزلوا﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل ، والنفي ، وأخذ الأموال ، وقتل الأحبة ، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال وأل بهم الزلزال ، إلى أن استبطنوا نصر الله مع يقينهم به .

ولكن لشدة الأمر وضيقه قال ﴿الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ .

فلما كان الفرج عند الشدة ، وكلما ضاق الأمر اتسع ، قال تعالى : ﴿الْإِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبًا﴾ فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن .

فكلما اشتدت عليه وصعبت ، إذا صبر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة ، والمشقات راحات ، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء ، وشفاء ما في قلبه من الداء ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ .

وقوله [تعالى] : ﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿فمنذ الامتحان ، يكرم المرء أو يهان .

﴿٢١٥﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي : يسألونك عن النفقة ، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه ، فأجابهم عنهما ، فقال : ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي : مال قليل أو كثير ، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم ، أعظمهم حقاً عليك ، وهم الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما ، ومن أعظم برهما ، النفقة عليهما ، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما ، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة ، على الولد الموسر ، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم ، الأقرب فالأقرب ، على حسب القرب



والحاجة ، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة ، ﴿واليتامى﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم ، فهم في مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم ، وفقد الكاسب ، فوصى الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفاً ، ﴿والمساكين﴾ وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة ، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم .

﴿وابن السبيل﴾ أي : الغريب المنقطع به في غير بلده ، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده .

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة ، عمم تعالى ، فقال : ﴿وما تفعلوا من خير﴾ : من صدقة على هؤلاء وغيرهم ، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات ، لأنها تدخل في اسم الخير ، ﴿فإن الله به عليم﴾ فيجازيكم عليه ويحفظه لكم ، كل على حسب نيته وإخلاصه ، وكثرة نفقته وقلتها ، وشدة الحاجة إليها ، وعظم وقعها ونفعها .

﴿٢١٦﴾ ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله ، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه ، لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكثر

مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم . فأخرجوهم ﴿منه﴾ ولم يمكنوهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد، فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أكبر من القتل﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعبيرهم المؤمنين .

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، إنما غرضهم أن يرجعوه عن دينهم، ويكونوا كفاراً بعد إيمانهم، حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم ياذلون قدرتهم في ذلك ساعون بما أمكنهم، ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ .

وهذا الوصف عام لكل الكفار، لا يزالون يقاتلون غيرهم حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصاً أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم إلى دينهم، وتدخلهم عليهم كل ما يمكنهم من الشبه التي تشككهم في دينهم .

ولكن المرجو من الله تعالى، الذي من على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه، أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام، وأن يخذل كل من أراد أن يطفىء نوره، ويجعل كيدهم في تحورهم، وينصر دينه، ويعلي كلمته .

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار، كما صدقت على من قبلهم: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسيقفونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ .

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام، بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافراً، ﴿فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام، ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾

ولما كان الأمر بالقتال لو لم يقيد لشمل الأشهر الحرم وغيرها، استثنى تعالى القتال في الأشهر الحرم، فقال:

﴿٢١٧﴾ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يردتكم عن دينه فيميت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ .

الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا، وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ، لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة، لعموم الأمر بالقتال مطلقاً؛ ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر مزاياها تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتدء، وأما قتال الدفع، فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز في البلد الحرام .

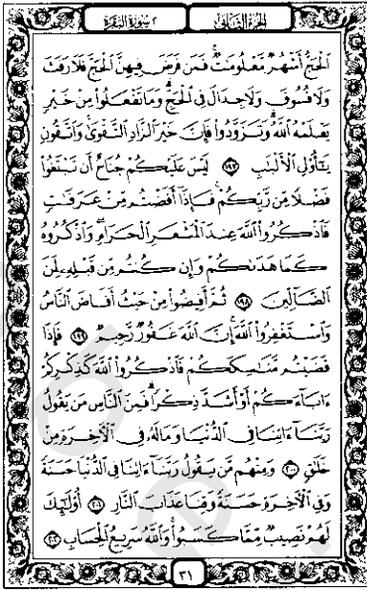
ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله بن جحش، وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم أموالهم، وكان ذلك - على ما قيل - في شهر رجب، غيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا في تعبيرهم ظالمين، إذ فيهم من القبائع ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمون، قال تعالى في بيان ما فيهم: ﴿وصد عن سبيل الله﴾ أي: صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله، وفتنتهم من آمن به، وسعيهم في ردهم عن دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام، الذي هو بمجرد كافر في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟! ﴿وإخراج أهله﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم النبي ﷺ وأصحابه، لأنهم أحق به من المشركين، وهم عماره على الحقيقة،



المسلمون وقوا، أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفس لما فيه من التعب والمشقة، وحصول المخاوف والتعرض للمتألف، ومع هذا فهو خير محض، لما فيه من الثواب العظيم، والتحرز من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك مما هو مرب، على ما فيه من الكراهة ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة، فإنه شر، لأنه يعقب الخذلان وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب .

وهذه الآيات عامة مطردة في أن أفعال الخير التي تكرها النفس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحب النفس لما تتوهم فيها من الراحة واللذة فهي شر بلا شك .

وأما أحوال الدنيا فليس الأمر مطرداً، ولكن الغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمراً من الأمور، فقيض الله [له] من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويجعل الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبء من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه، كما قال [تعالى]: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فاللائق بكم أن تمشوا



البيان زاجراً للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجع ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد أفوهما، وصعب التحميم بتركهما أول وهلة، قدم هذه الآية مقدمة للتحريم، الذي ذكره في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان﴾ إلى قوله: ﴿متهنون﴾ وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا.

فأما الخمر: فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه، من أي نوع كان، وأما الميسر: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض^(١) سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام، فإنها مباحة لكونها معينة على الجهاد، فلهذا رخص فيها الشارع.

﴿٢١٩ - ٢٢٠﴾ ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ في الدنيا والآخرة. وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر الله لهم الأمر، وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو المتيسر من أموالهم، الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى

وفي قوله: ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾ إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

ولهذا قال: ﴿والله غفور﴾ أي: لمن تاب توبة نصوحاً ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعمّ جوده وإحسانه كل حي.

وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب، التي قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة حصل على كل خير في الدنيا والآخرة؛ بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولا إقذارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخرأ، وهو الذي من بالسبب والمسبب.

﴿٢١٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أي: يسألك - يا أيها الرسول - المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكأنه وقع فيهما إشكال، فلهذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما، ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما وتحميم تركهما.

فأخبر أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء - أكبر مما يظنونه من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار، والطرب للنفوس عند تعاطيها، وكان هذا

ودلت الآية بمفهومها أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل رده، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

﴿٢١٨﴾ ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل.

وأما الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المؤلف لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلاته، تقرباً إلى الله، ونصرة لدينه.

وأما الجهاد: فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتخنُّ وغرور، وهو دالٌّ على ضعف همة صاحبه ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك.

(١) زيادتان في ب بخط مغاير.

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن **﴿الطلاق﴾** أي: الذي تحصل به الرجعة **﴿مرتان﴾** ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الشنتين فأما متجرى على المحرم، أو ليس له رغبة في إمسакها، بل قصده المضارة، فلماذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته **﴿بمعروف﴾** أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها **﴿بإحسان﴾** ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلماذا قال: **﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾** وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، **﴿فإن خفتن أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾**؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

﴿تلك﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية **﴿حدود الله﴾** أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها، **﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾** وأي: ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟ والظلم ثلاثة أقسام:

ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربيه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

﴿٢٣٠ - ٢٣١﴾ **﴿فإن طلقها فلا**

إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها لمثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق.

وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

﴿وللرجال عليهن درجة﴾ أي: رتبة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾**.

ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور، كالإيراث ونحوه.

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدتهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدتهن حيثتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات^(٢) يدل على أن المراد بها الحرة.

﴿٢٢٩﴾ **﴿الطلاق مرتان فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتن ألا يقيما حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾** كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يُطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارتها طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالخض والحمل ونحوه^(٣).

ثم قال تعالى: **﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾** أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردهن إلى نكاحهن **﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾** أي: رغبة وألفة ومودة.

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصده المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان.

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التبرص، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبته تعالى للآفة بين الزوجين، وكرهته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعتها، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾** أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع

(٢) في ب: الآية.

(١) في ب: ونحوهما.

تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضاراً لتمدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمته الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴿ يقول تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ أي: الطلقة الثالثة ﴿فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي: نكاحاً صحيحاً ويطؤها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق.

ويشترط^(١) أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني رغباً ووطئها ثم فارقتها وانقضت عدتها ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أن يتراجعا﴾ أي: يمددا عقداً جديداً بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي.

ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أن يقيما حدود الله﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عسرتها السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلها بعشرة حسنة، فهذا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقيم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من

الأمر، خصوصاً الولايات الصغار والكبار، نظر في نفسه^(٢)، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم وإلا أحجم.

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام العظيمة، قال: ﴿وتلك حدود الله﴾ أي: شرائعه التي حددها وبينها ووضحها.

﴿يبينها لقوم يعلمون﴾ لأنهم هم المتفهمون بها، النافعون لغيرهم.

وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصاً بهم، وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده، معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ أي: طلاقاً رجعياً بواحدة أو ثنتين.

﴿فبلغن أجلهن﴾ أي: قاربن انقضاء عدتهن.

﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أي: إما أن تراجعوهن ونيتم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿ولا تمسكوهن ضرراً﴾ أي: مضارة بهن ﴿لتمدوا﴾ في فعلكم هذا

الحلال، إلى الحرام؛ فالحلال: الإمساك بمعروف^(٣)، والحرام: المضارة، ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزواً، أي: لعباً بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة، رفقا

به وسعياً في مصلحته.

﴿واذكروا نعمته الله عليكم﴾ عموماً، باللسان ثناء وحمداً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله، ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي: السنة، اللذين بين لكم طرق الخير ورغبتكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعزفكم عن أنفسه ووقائعه في أولياته وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يعظكم به﴾ أي: بما أنزل عليكم، وهذا عما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو التهيب، فالحكم به يزول الجهل. والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع التهيب يوجب الرهبة.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ فلهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإقتان والإحكام، التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان [فله الحمد والمنة].

﴿٢٣٢﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أذكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من التزوج به حقناً عليه وغضباً، واشتمزازاً لما فعل من الطلاق الأول.

وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإيمانه يمنعه من العضل، فإن ذلك أذكى لكم وأطهر وأطيب مما يظن

(٣) في ب: بالمعروف.

(٢) في ب: أن ينظر.

(١) في ب: ويتعين.

الولي أن عدم تزويجه هو الرأي : واللائق ، وأنه يقابل بطلاقة الأول بعدم التزويج له ^(١) ، كما هو عادة المترفعين المتكبرين .

فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه ، فالله **﴿يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم ، مرید لها ، قادر عليها ، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره .

وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح ، لأنه نهى الأولياء عن العضل ، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق .

﴿٢٣٣﴾ ثم قال تعالى : **﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**

هذا خير بمعنى الأمر ، تنزيلاً له منزلة المقرر الذي لا يحتاج إلى أمر بأن **﴿يرضعن أولادهن حولين﴾** .

ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى معظم الحول ، قال : **﴿كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾** فإذا تم للرضيع حولان فقد تم رضاعه ، وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية ، فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر لا يحرم .

ويؤخذ من هذا النص ، ومن قوله تعالى : **﴿وحمله وفضاله ثلاثون شهراً﴾** أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وأنه يمكن وجود الولد بها .

﴿وعلى المولود له﴾ أي : الأب **﴿رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾** وهذا

شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة ، فإن على الأب رزقها ، أي : نفقتها وكسوتها ، وهي الأجرة للرضاع .

ودل هذا على أنها إذا كانت في حباله ، لا يجب لها أجرة غير النفقة والكسوة ، وكل بحسب حاله ، فلهذا قال : **﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾** فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني ، ولا من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد ، **﴿لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده﴾** أي : لا يجزى أن تضار الوالدة بسبب ولدها ، إما أن تمتنع من إرضاعه ، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة ، **﴿ولا مولود له بولده﴾** بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة له ، أو تطلب زيادة عن الواجب ، ونحو ذلك من أنواع الضرر .

ودل قوله : **﴿مولود له﴾** أن الولد لأبيه ، لأنه موهوب له ، ولأنه من كسبه ، فلذلك جاز له الأخذ من ماله رضي أو لم يرض ، بخلاف الأم .

وقوله : **﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾** أي : على وارث الطفل إذا عدم الأب وكان الطفل ليس له مال ، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة ، فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين على القريب الوارث الموسر ، **﴿فإن أرادا﴾** أي : الأبوان **﴿فصلاً﴾** أي : فطام الصبي قبل الحولين ، **﴿عن تراضٍ منهما﴾** بأن يكونا راضيين **﴿وتشاور﴾** فيما بينهما ، هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا **﴿فلا جناح عليهما﴾** في فطامه قبل الحولين . فدللت الآية بمفهومها على أنه إن رضي أحدهما دون الآخر ، أو لم يكن مصلحة للطفل ، أنه لا يجوز فطامه .

وقوله : **﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾** أي : تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة ، **﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾** أي : للمرضعات ، **﴿والله**



بما تعملون بصير﴾ فمجازيكم على ذلك بالخير والشر .

﴿٢٣٤﴾ **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾** أي : إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوباً ، والحكمة في ذلك ، ليتبين الحمل في مدة الأربعة ، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس ، وهذا العام مخصوص بالحوامل ، فإن عدتهن بوضع الحمل ، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة ، شهران وخمسة أيام .

وقوله : **﴿فإذا بلغن أجلهن﴾** أي : انقضت عدتهن **﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾** أي : من مراجعتها للزينة والطيب ، **﴿بالمعروف﴾** أي : على وجه غير محرم ولا مكروه .

وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة على المتوفى عنها زوجها ، دون غيرها من المطلقات والمفارات ، وهو مجمع عليه بين العلماء .

﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي : عالم بأعمالكم ظاهرها وباطنها ، جليها وخفيها ، فمجازيكم عليها .

وفي خطابه للأولياء بقوله : **﴿فلا**

(١) في ب : بعدم تزويجه .

فيه، فعليهم في مقابلة ذلك المتعة. فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارع ورحمته!! ومن أحسن من الله حكماً ليقوم يوقنون!!، فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر.

ثم ذكر حكم المفروض لهن، فقال:

﴿٢٣٧﴾ «وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتحقير ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير» أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه.

هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومساحة، بأن تعفو عن نصفها لزوجهما، إذا كان يصح عفوها، «أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح» وهو الزوج على الصحيح^(١)، لأنه الذي بيده حل عقده؛ ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة، لكونه غير مالك ولا وكيل.

ثم رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحصاناً موجباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحصان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق والغض بما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل

النكاح وغيره، فهو جائز للباين، كأن يقول لها: إني أريد الزوج، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس بمزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه.

وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: «أو أكنتم في أنفسكم، علم الله أنكم ستذكروهن» هذا التفصيل كله في مقدمات العقد.

وأما عقد النكاح فلا يحل «حتى يبلغ الكتاب أجله» أي: تنقضي العدة.

«واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم» أي: فانواوا الخير ولا تنواوا الشر، خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه.

«واعلموا أن الله غفور» لمن صدرت منه الذنوب فتاب منها، ورجع إلى ربه «حليم» حيث لم يعاجل العصاة على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

﴿٢٣٦﴾ «لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين» أي: ليس عليكم يا معشر الأزواج جناح وإثم بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها، فإنه ينجبر بالمتعة، فعليكم أن تمتعوهن بأن تعطوهن شيئاً من المال، جبراً لخواترهن. «على الموسع قدره وعلى المقتر» أي: المعسر «قدره».

وهذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: «متاعاً بالمعروف» فهذا حق واجب «على المحسنين» ليس لهم أن يبخسوهن.

فكما تسبوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن



جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنعها مما لا يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب عليه.

﴿٢٣٥﴾ «ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكنتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكروهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم» هذا حكم المعتدة من وفاة، أو البانة في الحياة، فيحرم على غير مبيحتها أن يصرح لها في الخطبة، وهو المراد بقوله: «ولكن لا تواعدوهن سرا» وأما التعريض فقد أسقط تعالى فيه الجناح.

والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حرم خوفاً من استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء لحن زوجها الأول بعدم مواعدها لغيره مدة عدتها.

وأما التعريض، وهو الذي يحتمل

(١) جاء في هامش ما نصه: (هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضوع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي الأقرب، وهو الأب، هو الأصح لمساعدة اللفظ له والمعنى كما هو ظاهر للمتدبر).

وفي هامش ب زيادة بخط المؤلف هي: (وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة).

والكرم، ولهذا قال **﴿إن الله بما تعملون بصير﴾** ثم قال تعالى:

﴿٢٤٠﴾ **﴿والذين يتوفون منكم**

ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً

إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا

جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من

معروف والله عزيز حكيم **﴿أي:**

الأزواج الذين يموتون ويتركون

خلفهم أزواجاً فعليهم أن يوصوا

﴿وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير

إخراج﴾ أي: يوصون أن يلزم من بيوتهم

مدة سنة لا يخرج منها **﴿فإن خرجن﴾**

من أنفسهن **﴿فلا جناح عليكم﴾** أيها

الأولياء **﴿فيما فعلن في أنفسهن من**

معروف والله عزيز حكيم **﴿أي:** من

مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك

وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة

بما قبلها وهي قوله **﴿والذين يتوفون**

منكم ويذرون أزواجاً تربصن بأنفسهن

أربعة أشهر وعشراً **﴿وقيل لم تنسخها**

بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر

وعشر واجبة، وما زاد على ذلك فهي

مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق

الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على

أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح

عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل

الحول، فلو كان لزوم المسكن واجباً لم

ينف الحرج عنهم.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ **﴿وللمطلقات**

متاع بالمعروف حقاً على المتقين **﴿**

كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم

تعقلون **﴿أي:** لكل مطلقة متاع

بالمعروف حقاً على كل متق، جبراً

لخاظرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه

المتعة واجبة على من طلقت قبل

المسيس، والفرض سنة في حق غيرها

كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها،

وقيل إن المتعة واجبة على كل مطلقة

احتجاجاً بعموم هذه الآية، ولكن

القاعدة أن المطلق محمول على المقيد،

وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل

الفرض والمسيس خاصة، ولما بين تعالى

هذه الأحكام العظيمة المشتملة على

﴿٢٣٨-٢٣٩﴾ **﴿حافظوا على**

الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله

قانتين **﴿فإن خفتن فرجالاً أو ركبانا**

﴿فإذا أمتنم فاذكروا الله كما علمكم ما لم

تكونوا تعلمون **﴿يأمر بالمحافظة على**

الصلوات عموماً وعلى الصلاة

الوسطى، وهي العصر خصوصاً،

والمحافظة عليها أداؤها بروقتها

وشروطها وأركانها وخشوعها وجميع

ما لها من واجب ومستحب،

وبالمحافظة على الصلوات تحصل

المحافظة على سائر العبادات، وتفيد

النهي عن الفحشاء والمنكر خصوصاً إذا

أكملها كما أمر بقوله **﴿وقوموا لله**

قانتين **﴿أي:** ذليين خاشعين، ففيه

الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن

الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع

الأمن والطمأنينة **﴿فإن خفتن﴾** ^(١) لم

يذكر ما يخاف منه ليشمل الخوف من

كافر وظالم وسبع، وغير ذلك من أنواع

المخاوف، أي: إن خفتن بصلاتكم على

تلك الصفة فصلوها **﴿رجالاً﴾** أي:

على أقدامكم، **﴿أو ركبانا﴾** على الخيل

والإبل وغيرها، ويلزم على ذلك أن

يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها،

وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على

وقتها حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال

بكثير من الأركان والشروط، وأنه

لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه

الحالة الشديدة، فصلاتها على تلك

الصورة أحسن وأفضل بل أوجب من

صلاتها مطمئناً خارج الوقت **﴿فإذا**

أمسنتم﴾ أي: زال الخوف عنكم

﴿فاذكروا الله﴾ وهذا يشمل جميع أنواع

الذكر ومنه الصلاة على كمالها وتامها

﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾

فإنها نعمة عظيمة ومنه جسيمة،

تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر ليبقي

نعمته عليكم ويزيدكم عليها، ثم قال



الحكمة والرحمة امتن بها على عباده
فقال: **﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾**
أي: حدوده، وحلاله وحرامه
والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها
فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن
من عرف ذلك أوجب له العمل بها، ثم
قال تعالى:

﴿٢٤٣-٢٤٥﴾ **﴿لم تر إلى الذين**

خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر

الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم

إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر

الناس لا يشكرون **﴿وقاتلوا في**

سبيل الله واعلموا أن الله سميع

عليم **﴿من ذا الذي يقرض الله قرصاً**

حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله

يقبض ويبسط وإليه ترجعون **﴿يقص**

تعالى علينا قصة الذين خرجوا من

ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم،

بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من

وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج

السلامة من الموت، ولكن لا يعني

حذر عن قدر، **﴿فقال الله لهم موتوا﴾**

فماتوا **﴿ثم﴾** إن الله تعالى **﴿أحياهم﴾**

إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم

ولطفاً وحلماً، وبياناً لآياته لخلقهم

بأحياء الموتى، ولهذا قال: **﴿إن الله**

(١) من هنا بدأ الاختلاف بين النسختين، وقد أشرت إليه في المقدمة بشيء من التفصيل وقد أثبت التفسير المأخوذ من النسخة ب في



اليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذه الوهم بقوله: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عن من يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجلدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فلهاذا قال ﴿والله يرجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي تتركها أوامر الله. وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى أعياناً في هذه الدار. وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحائثة عليه، من تسميته قرضاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

﴿٢٤٦ - ٢٤٨﴾ ألم تسر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلون وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليهم بالظالمين * وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم * وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * يقص تعالى على نبيه قصة الملا من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملا بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام

فقالوا له ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ أي: عين لنا ملكاً ﴿نقاتل في سبيل الله﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قال﴾ لهم نبيهم ﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ أي: لعلكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد أجانأ إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذراريينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما تكن نياتهم حسنة ولم يقو تولكلهم على ربهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ فجنبا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولوا على أكثرهم الخور والحين ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلهاذا قال: ﴿والله عليهم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم ﴿مجيئاً لطلبتهم﴾ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فكان هذا تعييناً من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي: كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه. ومع هذا فهو

لذو فضل ﴿أي: عظيم﴾ على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿فلا تزيدهم النعمة شكراً، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي: فأحسنوا نياتكم واقتصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئاً، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ فينق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصاً في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى، ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾. الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المنفق ونيته ونفع نفقته والحاجة

فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك وتحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فهذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾

أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي: والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي: المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين احتل عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالماً بالأمر وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي: الذي لا ينقذه شيئاً ﴿والله واسع﴾ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبره العام أحداً عن أحد، ولا شريفاً عن وضيع، ولكنه مع ذلك ﴿عليم﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتیه من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد، ثم ذكر لهم نبيهم أيضاً آية حسية يشاهدونها وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زماناً طويلاً وفي ذلك التابوت سكينه تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأنت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عياناً.

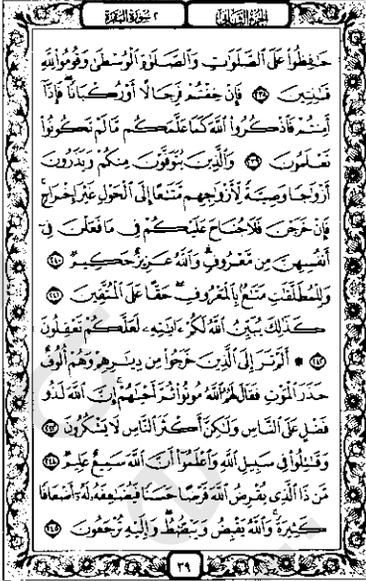
﴿٢٤٩ - ٢٥٢﴾

طالوت بالجناد قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملائكة الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع

الصابرين * ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزمهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين * أي:

لما تمكك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عدداً كثيراً وجماً غفيراً، امتحنهم بأمر الله ليبين الثابت المطمئن عن ليس كذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿ومن لم يطعمه﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتناول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الشابتون توكلاً على الله، وتضرعاً واستكانة وتبرؤاً من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقلبتهم وكثرة عدوهم، فلماذا قال تعالى: ﴿فلما جاوزه﴾ أي: النهر ﴿هو﴾ أي:

طالوت ﴿والذين آمنوا معه﴾ وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا... قتلهم وكثرة أعدائهم، قالوا أي: قال كثير منهم ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ لكثرتهم وعددهم وعُددهم ﴿قال الذين يظنون أنهم ملائكة الله﴾ أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرهم، وأميرين



لهم بالصبر ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ أي: بإرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى، والعزير من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره، ﴿والله مع الصابرين﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوعدت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قالوا﴾ جميعهم ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرنا على القوم الكافرين. من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفاراً، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم ﴿فهزمهم بإذن الله، وقتل داود﴾ عليه السلام، وكان مع جنود طالوت، ﴿جالوت﴾ أي: باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره ﴿وآتاه الله﴾ أي: أتى الله داود ﴿الملك والحكمة﴾ أي: من عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، ولهذا قال ﴿وعلمه مما يشاء﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك



وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لإرتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملاحين راجعوا بينهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلزم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن الحق كلما عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحاً وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقات طالوت للملك أجبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبه والريب. ومنها: أن العلم والرأي: مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، وبفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها. ومنها: أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ فكانه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرتنا على القوم الكافرين﴾ فهزمهم بإذن الله. ومنها: أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز. ومنها: أن من رحته وسنته الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٣﴾ ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلقوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو

شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيجائه وإرسالهم إلى الناس ودعاتهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ الدلالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي: بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل أيده بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات﴾ الموجبة للاجتماع على الإيمان ﴿ولكن اختلقوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعادة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلماذا قال ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ فأرادته غالبية ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية. فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل

لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك فلماذا قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكثهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها، ثم قال تعالى ﴿تلك آيات الله تلوها عليك بالحق﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيها المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ﴿وانك لمن المرسلين﴾ فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفة والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقاً ونبية صدقاً الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يستدئ الشافع قبل الإذن، ثم قال ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وما خلفهم﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتها وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكلل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلماذا قال: ﴿ولا يؤوده﴾ أي: يتقله ﴿حفظهما وهو العلي﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿العظيم﴾ الذي تتضائل عند عظمتها جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات الغلّاء، ثم قال تعالى:

والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴿ هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلماذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه، ممتثلاً لأوامره مجتنباً لنواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الحق القيوم﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدر، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطي، ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ والسنة النعاس ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدير وغيره مخلوق مرزوق مدبر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض فلماذا قال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه،

القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالمون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتيمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحيه، فلماذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخراً وأجرأ موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو اقتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم يضعه خليل ولا صديق لا بوجهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه يخسر المظلمون ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلماذا قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. ثم قال تعالى:

﴿٢٥٥﴾ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات

منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبغيون عنه بدلاً ولا يشركون به أحداً، قد اتخذوه حبيباً وولياً، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومنّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والخسر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله ولياً ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلبهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤذونهم إلى المعاصي أژاً، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

﴿٢٥٦-٢٥٧﴾ ﴿إلا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ * الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالوفق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس له حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكروه ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها﴾ وأما من عكس القضية فكفر بالله وأمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل ماله إلى الحميم ﴿والله سميع عليم﴾ فيجازي كلا

﴿٢٥٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ أي: إلى جرائته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حمله على ذلك إلا ﴿أن آتاه الله الملك﴾ فطنى وبغى ورأى نفسه مترسماً على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بأنواع التصرف،

وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدبير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحاج: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصاً فيكون قد أماته، ويستقي شخصاً فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلاً عن كونه حجة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾ أي: عياناً يقربه كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿فأت بها من المغرب﴾ وهذا الزام له بطرد دليله إن كان صادقاً في دعواه، فلما قال له أمراً لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحاً يقدح في سبيله ﴿بهت الذي كفر﴾ أي: تخير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة البطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بل يبيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جُملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهراً متصرفاً فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على

تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيد بهم المثالث أنزل بهم عقابه وحرهم جزيل ثوابه .

﴿٢٦٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثله صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ينهى عباده تعالى لطفاً بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى ففيه أن المن والأذى يبطل الصدقة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قبلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضيع العمل سدى، وقوله: ﴿كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي: أنتم وان قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنه والأذى مبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراعاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور، فمثلته المطابق لحاله ﴿كمثل صفوان﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿عليه تراب فأصابه وابل﴾ أي: مطر غزير ﴿فتركه صلداً﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرابي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح

أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حلیم﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه ويطلب منه مقابله، ولا أذية له قولية أو فعلية، فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندمع عنهم الشر لأنهم عملوا عملاً خالصاً لله سالماً من المفسدات ﴿قول معروف﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿ومغفرة﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضاً بترك المؤاخذة، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسداً لها محرماً، لأن المنه لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمن بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضاً فإن المان مستعبد لمن يمن عليه، والذل والاستعداد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، ﴿والله غني﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿حلیم﴾ على من عصاه لا يماجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرف لهم الآيات لعلمهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم



قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ وهنا قال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولها إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة﴾ وهذا إحضار بصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببعده فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقرى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتنفاد النفس مذمعة للإنفاق ساعحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنه الجليلة، ﴿والله يضاعف﴾ هذه المضاعفة ﴿لمن يشاء﴾ أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها بموقعها، ويحتمل أن يكون ﴿والله يضاعف﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لمن يشاء﴾ فيعطيهم أجرهم بغير حساب ﴿والله واسع﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقص نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاطمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو ﴿عليم﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته. ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم

العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره، فلماذا قال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾.

﴿٢٧١﴾ **﴿إن تبدوا الصدقات فنمما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾** أي: **﴿إن تبدوا الصدقات﴾** فتظهرها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله **﴿فنمما هي﴾** أي: فنعم الشيء **﴿هي﴾** حصول المقصود بها **﴿وإن تخفوها﴾** أي: تسروها **﴿وتؤتوها﴾** الفقراء فهو خير لكم. ففي هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء فمفهوم الآية أن السر ليس خيراً من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الأسرار، ودل قوله: **﴿وتؤتوها الفقراء﴾** على أنه ينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجاً وغيره أحوج منه، ولما ذكر تعالى أن الصدقة خير للمتصدق ويتضمن ذلك حصول الشواب قال: **﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾** فيه دفع العقاب **﴿والله بما تعملون خبير﴾** من خير وشر، قليل وكثير والمقصود من ذلك المجازاة.

﴿٢٧٢ - ٢٧٤﴾ **﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا تنفكوا وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾** للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم * الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرأ وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم

يجزنون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ ليس عليك هدي الخلق، وإنما عليك البلاغ المبين، والهداية بيد الله تعالى، فيها دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر ولو لم يهتد، فلماذا قال: **﴿وما تنفقوا من خير﴾** أي: قليل أو كثير على أي: شخص كان من مسلم وكافر **﴿فلا تنفكوا﴾** أي: نفعه راجع إليكم **﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾** هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص **﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾** يوم القيامة تستوفون أجوركم **﴿وأنتم لا تظلمون﴾** أي: تنقصون من أعمالكم شيئاً ولا مثقال ذرة، كما لا يزداد في سيئاتكم، ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها فوصفهم بست صفات أحدها الفقر، والثاني قوله: **﴿أحصروا في سبيل الله﴾** أي: قصروها على طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبسون له، الثالث عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال: **﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾** أي: سافراً للتركيب، الرابع قوله: **﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾** وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم. الخامس: أنه قال: **﴿تعرفهم بسيماهم﴾** أي: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا يتنافى قوله: **﴿يحسبهم الجاهل أغنياء﴾** فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفكر بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفكر فمجرد ما يراه^(١) يعرفهم بعلامتهم، السادس قوله: **﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾** أي: لا يسألونهم سؤال إلحاف، أي: إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلحوا على من سألوا، فهؤلاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات لما وصفهم به من جميل الصفات، وأما النفقة من حيث هي على أي: شخص



كان، فهي خير وإحسان وبر يشاب عليها صاحبها ويؤجر، فلماذا قال: **﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾** ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال: **﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾** أي: طاعته وطريق مرضاته، لا في المحرمات والمكروهات وشبهوات أنفسهم **﴿بالليل والنهار سرأ وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم﴾** أي: أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم **﴿ولا خوف عليهم﴾** إذا خاف المقصرون **﴿ولا هم يجزنون﴾** إذا حزن المفرطون، ففازوا بحصول المقصود المطلوب، ونجوا من الشرور والمهروب، ولما كمل تعالى حالة المحسنين إلى عباده بأنواع النفقات ذكر حالة الظالمين المسيئين إليهم غاية الإساءة فقال:

﴿٢٧٥ - ٢٨١﴾ **﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم * إن الذين آمنوا وعملوا

(١) في النسختين: يراه.

منه لم يؤجر عليه بل يكون زاداً له إلى النار ﴿ويربي الصدقات﴾ أي: ينميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها وهذا لأن الجزء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده ﴿والله لا يحب كل كفار﴾ لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله ﴿أثم﴾ أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته. لما ذكر أكلة الربا وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً بنفعهم لم يصدر منهم ما صدر ذكر حالة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربهم ويتقادون لأمره، وأمرهم أن يتقوه، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات الحاضرة الموجودة، وأما ما سلف، فمن اتعظ عفا الله عنه ما سلف، وأما من لم ينزجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه مشاق لربه محارب له، وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في محاربة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم ولا يهمله حتى إذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وإن تبتم﴾ عن الربا ﴿فلكم رؤوس أموالكم﴾ أي: أنزلوا عليها ﴿لا تظلمون﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿ولا تظلمون﴾ بنقص رؤوس أموالكم ﴿وإن كان﴾ المدين ﴿ذو عسرة﴾ لا يجد وفاء ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾ وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفني به ﴿وأن تصدقوا خيراً لكم إن كنتم تعلمون﴾ إما بإسقاطها أو بعضها.

﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل

قال الله تعالى راداً عليهم ومبيناً حكمته العظيمة ﴿وأحل الله البيع﴾ أي: لما فيه من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما يدل على المنع ﴿وحرم الربا﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، والربا نوعان: ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال، سلم، وربا فضل، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً، وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، وشذ من أباح الربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ أي: وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قبضه الله لموعظته رحمة من الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه ﴿فانتهمي﴾ عن فعله وانزجر عن تعاطيه ﴿فله ما سلف﴾ أي: ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة، دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي بالأول والآخر ﴿وأمره إلى الله﴾ في مجازاته وفيما يستقبل من أموره ﴿ومن عاد﴾ إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك ﴿فأولئك أصحاب النار﴾ هم فيها خالدون. اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تحليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحاً للخلود فيها بقطع النظر عن كفره، ثم قال تعالى: ﴿يمحق الله الربا﴾ أي: يذهب ويذهب بركته ذاتاً ووصفاً، فيكون سبباً لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق



الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * يخبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مآلهم وشدة منقلبهم، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي: يصرفه الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الوبال، فكما تقلبت عقولهم و ﴿قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازأهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعفت أراؤهم، وصاروا في هيتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم،

الشعر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجلي والخفي، وأن الله لا يظلمه مقال ذرة، أو جب له الرغبة والرغبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

﴿٢٨٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تابعتهم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن فعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾ هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث أنه لا بد للسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معيناً معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوباً وإما استحباباً لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس أن يكون عدلاً في نفسه لأجل

اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقرابة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر قوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدانيين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يملئ من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبغض منه شيئاً، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً، الخامس عشر: أن من عليه حقاً من الحقوق التي البينة^(١) على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبغض وينقص شيئاً من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولو احقه، السابع عشر: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار، الثامن عشر: أنه



يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البغض لقوله ﴿بالعدل﴾ التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، العشرون: ثبوت الولاية في الأموال، الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لطفاً بهم ورحمة، خوفاً من تلاف أموالهم، الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدانيون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، الخامس والعشرون أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان

(١) الكلمة غير واضحة في الأصل، وأقرب ما يكون أنها على ما أثبت والله أعلم.



الرابع والأربعون والخامس والأربعون. السادس والأربعون أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ السابع والأربعون أن الأوصاف كالفسق والإيمان والتفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: ﴿فإنه فسوق بكم﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق. الثامن والأربعون: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: ﴿من ترضون من الشهداء﴾. التاسع والأربعون أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس قبلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حكيم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده. وقوله تعالى:

﴿٢٨٣﴾ ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه أثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ أي: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتباً يكتب بينكم ويحصل به التوثق ﴿فرهان مقبوضة﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضاً على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهننت به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضاً عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهننت به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان القصد بالرهن التوثق جاز حضراً وسفراً، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة

شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: ﴿ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا﴾ السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السأمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من أشبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لابد من اليقين، الأربعون: قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضراً بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشترط الإشهاد لقوله: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضاً بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقاً ونحو ذلك، وهذان هما

المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لفهوم لفظ الرجل، التاسع والعشرون أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم. الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ والعبد البالغ من رجالنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكورا كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان



مؤاخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي: أمراً تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالى ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فأصل الأمر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحماية عن الضرر، فإله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعدار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغیره، وفي الإتيان بـ «كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بـ «اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين، معه وأن كل عامل سيجازي بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطبق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ

﴿٢٨٥﴾ ﴿أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلاً، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجمعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجمعهم بل كفر بالله ﴿وقالوا سمعنا﴾ ما أمرتنا به ونهيتنا ﴿وأطعنا﴾ لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا ﴿غفرانك﴾ أي: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من العيوب ﴿وإليك المصير﴾ أي: المرجع لجميع الخلائق فتجزئهم بما عملوا من خير وشر.

﴿٢٨٦﴾ ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ لما نزل قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها

إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يجب أن يتوثق لحقه، فما كان صاحب الحق آمناً من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وليتق الله ربه﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿ولا تكتسبوا الشهادة﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتسبها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخير الصدق ويخبر بصدقه وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يكتسبها فإنه أثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حِكْم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه.

﴿٢٨٤﴾ ﴿الله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ هذا إخبار من الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم وديرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكانوا ملكاً له وعبداً، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وهو ربه ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسيحاسبهم على ما أسروه وأعلنوه، ﴿فيغفر لمن يشاء﴾ وهو لمن أتى بأسباب، المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيئته وتقديره وجزائه.